حكاية عن
الإخوان المسلمين

يرويها

دكتور عبد الوهاب العشماوى

حكاية عن الإخوان المسلمين

يرويها

دكتور عبد الوهاب العشماوي

٢٠٠١

إرهابيون أم دعاة إصلاح

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إلى كل من يبحث عن الحقيقة

بسم الله تبدأ الرواية

«جلس الملقن في خندقه وسط المسرح وقد وضع أمامه رزمة من الأوراق لا نظام لها. وأمسك التاريخ بعصاه فدق بها على أرض المسرح دقات ثلاث إيذانا برفع الستار. وساد الصمت إرجاء المكان.

واكتست وجوه الحاضرين بمسحة من الوجوم أقرب ما تكون إلى الهلع والذهول.

ورفع الستار وتوالت المشاهد تباعا والناس كأن على رءوسهم الطير لا يصدقون ما يجري أمامهم».

المخرج

المشهد الأول

وأبحر الحجيج إلى بيت الله الحرام...

وأبحر الحجيج إلى بيت الله الحرام

لا أكاد أذكر الشهر ولا اليوم ولكن السنة كانت ١٩٤٤ والشهر الهجري كان "ذو القعدة". وكان الناس قد تجمعوا في مدينة السويس منذ الصباح الباكر إيذانا بالذهاب إلى الميناء ليصعدوا إلى السفينة التي ستحملهم إلى الأرض المقدسة. وكان الميناء على غير ما هو عليه الآن متواضعا أشد التواضع ولكنه كان نظيفا منظما غاية النظام وكانت ضمائر الناس يومها صافية وكانت في رحلة الحج أشد صفاء ومحبة للناس أكثر من أي وقت مضى.

وكان الناس يومها يقرنون الحج بالسفر بحرا حيث يتجمع الحجيج على سطح السفينة وينضم إليهم من الغرف من لا يعانون من عقدة النعرة والتعالي على الناس. وكانوا يظلون كذلك حتى صلاة الفجر يستمعون إلى الوعاظ عن حق والوعاظ من لابسي العمامة. وكان الحجيج يجدون متعة في ذلك وتبلغ المتعة غايتها عندما تمر السفينة بالميقات على شاطئ الحجاز فينادي مناد بالتلبية ويهرع الناس إليه يرددون من خلفه "لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك". وقد تملكتهم الروحانية إلى أبعد الحدود وارتدوا

ملابس الإحرام فبح صوت البعض منهم وربما سقطت الأحرمة عن البعض الآخر من كثرة ما رفعوا إيديهم وأنزلوها بالتلبية والدعاء.

وكان من بين الحجيج أبي وأمي رحمة الله عليهما وبصحبتهما شقيقتي الكبرى وزوجها رحمة الله عليهما كذلك وكان لهذا الأخير مع الجماعة شوط بعيد فاق بكثير ما كنت ومازلت أحمله له من محبة خاصة ومودة فائقة على نحو ما سأرويه في هذه المشاهد.

وذات ليلة تساءلت أمي عن السر وراء تأخر اختي وزوجها عن العودة من سطح السفينة. وكان أبي يعلم السر ولكنه آثر السكوت فقد كانت لشقيقتي عنده أثرة فاقت كل شيء أو لعله أطمئن إلى أنهم في رحلة مقدسة إلى بيت الله ففيم القلق والإنزعاج وزوجها بالقرب منها لا يبتعد عنها لحظة واحدة. ولكن انزعاج أمي وقلقها طال أكثر مما ينبغي له أن يطول فأبلغها أبي أنهما يقضيان الليل على سطح السفينة وأضاف كأن الأمر ليس مرتبطا ببعضه إن هناك رجل طيب يعظ الناس ويفقههم في دينهم ومناسك حجهم حتى يصلي بهم الفجر ثم ينفضون بعد ذلك إلى غرفهم ومعاشهم.

وفي اليوم التالي علمت أمي أن هذا الواعظ يدعى حسن البنا وأنه يرأس جمعية وليست جماعة تهتم بأمور الدين وترشد

الشباب إلى الطريق القويم. ولم تجد أمي بأسا من ذلك بل ربما حملها الفضول إلى أن تستمع إليه بعد أن كثر حديث الحجيج عنه وعن مواعظه خاصة وأن السفينة قد أوشكت على أن تلقي مراسيها في ميناء جدة أو جدة بكسر الجيم كما ينطقها أخواننا السعوديون على زعم أنها كانت أول أرض مستها قدم جدتنا الراحلة حواء.

ولقد كان لأمي ما أرادت ووسط فرحة شقيقتي وزوجها أصطحبها أبي مع كوكبة من الكبار والشيوخ لقضاء فترة على سطح السفينة ولم يجدوا بأسا من الاستماع إلى الشيخ الواعظ الذي جلجل صوته لما رآهم ولم يتوقف عن الحديث حتى مطلع الفجر. بل الحق أنه لم يتوقف عن الوعظ والإرشاد طوال الرحلة ومن بعدها. ولاحظ حسن البنا أن الجمع الذي يستمع إليه لم يعد هو الجمع الذي أعتاد عليه وإنما أنضم إليه كبار القوم سنا ومقاما وعلما فضلا عن مجموعة كبيرة من الرجال والنساء ربما كان دافعهم الفضول أو قضاء بعض الوقت قبل أن يتهيأ الناس للنزول إلى البر فظن الشيخ أن الأمر قد استقام له وأنه قد ملك قلوب أهل السفينة لا فرق بين كبير وصغير ومؤمن كان أو مجرد مسلم

موحد بالله عن له أن يطوف ببيت الله وأن يزور قبر نبيه المصطفى في سياحة دينية ربما تمحو عنه ما علق به من سيئات خلال سياحة أخرى أقدم عليها من قبل.

والحق أن أبي بواسع علمه لم يجد فيما قاله الشيخ جديدا يستحق أن يستمع إليه أما أمي فقد رأت بفطرتها وذكائها أن وراء هذا الشيخ الواعظ أمور تفوق بكثير ما يتحدث عنه أو يشير إليه. والحق كذلك أن الشيخ الواعظ كان عذب الحديث حلو الكلام لديه قدرة فائقة على الاستدلال بآيات الكتاب الكريم. وكانت قدسية الرحلة وما أحاط بها من روحانية قد أعانت الشيخ على ما أراد فالقلوب صافية أو مفروض أنها كذلك والناس لا شغل لهم إلا ذكر الله والجهر إليه بالدعاء والتلبية . . .

وأنتهت مناسك الحج وما تلاها أو ما سبقها من التبرك بزيارة قبر الرسول والصلاة في روضته الشريفة والتي يصر البعض على ألا تقل عن أربعين صلاة وعاد الناس إلى ديارهم ليعيشوا حياتهم كما كانوا من قبل وعاد الرجال إلى ما أعتادوه من ملابس وعادت النساء إلى ما أعتدن عليه من زينة وأناقة. وبقيت ذكريات الحج في قلوبهم ساكنة وعلى ألسنتهم متحركة كلما تطرق الحديث إليها

أو سنحت الفرصة للتباهي بها أمام الناس. وهكذا غلبت الدنيا على الدين حينا من الدهر وبقي الدين في قلوب الناس وباطنهم لا يتزحزح ولكنه كان في الظاهر على هامش حياتهم وبقدر ما توافر لهم في زحمة الحياة من لحظات يذكرون فيها خالقهم وخالق الكون من حولهم.

ومع عودة الحجيج عاد الشيخ الواعظ المرشد يحمل معه بطانته وقد عمر قلبه بحب الدين والدنيا معا فقد قضى مناسكه وذكر ربه أكثر مما ذكر اباءه وأجداده وظفر بعد ذلك بتعلق الحجيج به فما ودعوه حتى أقسم أغلبهم أن يعود إلى مجلسه والاستماع إلي مواعظه إن هو عاد بسلامة الله إلى أرض الوطن.

وكما يفعل مخرجو الأفلام والمسلسلات في أعمالهم فقد سرح خاطر الشيخ الواعظ إلى سنوات من الماضي البعيد يوم كان يعمل في قرية أو ضاحية بالقرب من الإسماعيلية قيل أنها مدرسة إبتدائية وقيل بل إلزامية وليس الفرق بين الاثنين بكبير فقد كان الناس يعدون التعليم في المرحلة الابتدائية إلزاميا ينبغي على كل والد ألا يحرم أبناءه منه أو من جانب منه على أقل تقدير. ويومئذ كان الشيخ الواعظ قد عرف بين أقرانه بالطيبة والميل إلى

التدين والامتثال لأوامر الله وتجنب نواهيه. وكان هذا القدر كافيا أول الأمر ليقيم الشيخ أغلب صلاته وروابطه بالناس فلم يكن بعد قد اكتسب صفة الداعية ولا المرشد لذلك اكتفى الناس بالإقبال عليه بل التفوا من حوله بعد ذلك حتى صار هو المتحدث في كل مجلس يعقده أهل القرية أو ما جاورها من أجل الكلام في الدين أو الإيمان.

والحق انه لم يكن في الشيخ ما يجذب الناس أكثر من سحر تركز في عينيه يصعب على من استهدفته أن يتخلص منها في سهولة أو يسر وذلك بالإضافة إلى قدرة على الحديث وتمكن من كتاب الله فضلا عن تواضع ظاهر في الهيئة والملبس وأسلوب الحياة. ولأن الدعوة إلى الله في الغالب طبعا تصدر عن القلب وتخاطب القلب كذلك فإنها عادة ما تكون أشد اشتعالا وانتشارا من النار وسط الهشيم من أجل ذلك لم يضع الشيخ الجليل وقتا طويلا في بداياته إذ لم يلبث أن غدا داعية ومرشدا للناس من حوله في أمور دينهم وأبا روحيا لمن التف حوله من أتباع في أمور دينهم ودنياهم على السواء.

ويبدو أن الداعية قد أحس بأن الإسماعيلية قد ضاقت عليه بما

رحبت وأنه قد آن الأوان لأن يعقد العزم على توسيع دائرة دعوته إلى الله وأنه إن ذهب إلى القاهرة فقد ملك المحروسة كلها فغدا يمتد نشاطه شمالا وجنوبا وربما شرقا وغربا كذلك بذلك تدين له البلاد كلها فلا يبقى مكان إلا ويتردد فيه شعاره الذي اختاره للجماعة بذكاء شديد على نحو ما سنرى.

وشد الداعية رحاله إلى المحروسة واتخذ له من الحلمية مقرا أو مركزا حسب تعبيره وأختار مسكنه إلى جانب مركزه تماما كما كان يفعل أصحاب الدعوات والمصلحون. ومن هذا وذاك إنطلقت دعوته إلى كل مكان. وعلى الحلمية توافد الناس يدفعهم تدين فطروا عليه أو فضول دفعهم إليه. ووسط هذا الجمع الكبير اندس عدد لا بأس به من الناضورجية أو التابعين أو قل المريدين الذين راحوا يتأملون كل وافد فإما أنه عابر سبيل لا خير فيه وإما أنه زائر جاء ليستمع وقد تجدي معه الاستضافة وإما أنه مؤمن بأن ما يجري إنما هو نشاط لجمعية لا تستهدف إلا إصلاح المجتمع أو تنميته على نحو ما يتوهم الاقتصاديون وعلماء الاجتماع وهؤلاء تواجدهم خير من إنفضاضهم لذلك كانوا يرحبون بهم دون أن يتبسطوا معهم في حديث وإما أن يكونوا ممن لم تتعود على

رؤيتهم عيون التابعين أو البصاصين بلغة المماليك وهؤلاء كانوا موضع المراقبة والملاحقة فربما كان وراءهم ما يخيف أو ما يفيد ولقد كان ذلك ما حدث فمن بين هؤلاء تشكل جيش الغزاة الذين غزوا دعوة الإخوان المسلمين على نحو ما سنرى.

وهكذا أسدل الستار على المشهد الأول والداعية المرشد ماض في أحاديثه لا تنقطع وزوج أختي والبعض من أصحابه جالسون يستمعون وقد أضمروا في أنفسهم أمرا وآن الأوان لكي يتخذوا فيه قرارهم والذي شاء الله أن يكتب به مصيرهم بعد ذلك.

"ستار"

المشهد الثانى

واحتل الغزاة مناصب الجماعة ...

واحتل الغزاة مناصب الجماعة

عاد الوالدان إلى القاهرة كما ذكرنا بعد أن أديا فريضة الحج وحققا الغرض الوحيد من الرحلة فلم يكن لهما فيها مطمع أكثر من ذلك. وعادت الأخت وزوجها ولكنهما عادا على غير ما ذهبا به فقد ازدادا نورا على نور وبدا الزوج منيرا مضيئا أكثر مما تعودناه. وربما كنت أنا وحدي الذي لاحظ عليه شرودا وإغراقا في التأمل لم أشهده عليه من قبل. ولم يطل تأمل المنير وصحبه وشرودهم بل كثر ترددهم على المركز ولازموا المرشد في تجواله وسخروا له ما كان في حوزتهم من وسائل الراحة والأبهة. ثم صاروا أعضاء دائمين في عاطفة الثلاثاء وهو اجتماع موسع كان يعقده المرشد مساء كل ثلاثاء يردد فيه عادة نفس الكلام وذات المعاني ولكن بتوزيع مختلف كما يقول إخواننا الموسيقيون. ولم تمض أشهر قليلة حتى صاروا أعضاء معينين رغم أنف القاعدة الشعبية في مجلس مصغر جعله الشيخ الجليل للصفوة من أصفيائه. وأحيطت مداولات هذا المجلس بهالة من القدسية المفتعلة حتى لقد ظن من ضمهم المجلس أنهم أركان حرب الدعوة وحدهم وظن من لم يضمهم المجلس انهم إما آملون

في الرضاء الأعظم يوم يأتي موعده أو أنهم من المغضوب عليهم والعياذ بالله. وأخذت كل طائفة من هؤلاء طريقها الذي اختارته لنفسها فإما صراع من أجل استعادة السلطة وإما عزوف عنها وعن الجماعة في آن واحد.

وأرتاح المرشد الجليل إلى ما أضفاه عليه أتباعه من إمامة فلبس العمامة وزانها على غير ما تصور شاعر الربابة وألقى على كتفيه عباءة سوداء زادته بهاء وأبهة ووقارا. ومع ذلك فقد بقي في نظر من عرفوه وأحبوه من قبل الشيخ الواعظ الجليل. أما الحكومة فقد بدأت تحس بأن وراء الشيخ ما يدعو إلى التفكر دون أن يدعو إلى الخطر وظلت ترى فيه إماما أصغر فقد كان لديها ومازال إمام أكبر هو شيخ الجامع الأزهر.

وشأن كل دعوة أو حركة فإن من ينضمون إليها في اول الأمر عادة ما يكونون من بسطاء الناس وأواسطهم الذين لا مطمع لديهم ولا طموح والذين هم بحظهم وأرزاقهم راضون والذين لا سطوة لهم ولا مال وهم مع ذلك كله من رجال السلطة يعانون. وصدق الله تعالى في قوله على لسان قوم نوح عليه السلام" إن نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي." واستغفر الله إن كنت أقصد بذلك نيلا من أحد أو مساسا بمن اتبعوا المرشد الواعظ أو تشكيكا

في إيمانهم أو عقيدتهم فالأمر لله وحده وهو يعلم السر وأخفى وهو وحده الأعلم بالسرائر وما تنطوي عليه أفئدة الناس. ولكني أردت أن أقول أن الشيخ الجليل وقد تكاثر من حوله الأتباع والمريدون قد نظر وفكر فإذا ما اجتمع لديه من قيادات أدنى بكثير من أن تحقق طموحاته وتطلعاته ورأى بثاقب فكره أن الجماعة ومن بعدها دولة الجماعة أحوج ما تكون إلى قادة جدد يكونون أكثر تميزا وأبعد نفوذا وأكثر تحضرا بل وأكثر قبولا لدى الناس. ذلك لأن الجماهير لا ينضمون عادة إلا تحت لواء الأعظم أو الأقوى أو الأغنى أو الأذكى ويروي لنا الكتاب الكريم قول قريش لما أرادوا أن يشككوا في نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام"لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم.."

ومن هنا بدأت غزوة المثقفين الجدد تجتاح جماعة الأخوان المسلمين. ويخطئ من يظن أن الغزوة قد تمت بغير علم من الشيخ أو من وراء ظهره بل أغلب الظن أن الغزو قد تم بعلمه وأكاد أقول بفكره وتدبيره فهو الذي دعا الغزاة إلى إجتياز حدود الجماعة ومحاصرة عاصمتها في الحلمية ثم الإنقضاض على عليا المناصب فيها على نحو ما سنرى.

ولم تكن عملية الغزو ولا التحضير لها واضحة أمام الكثيرين بل

كانت تجري في هدوء بعيدا عن عاصمة الجماعة في حي الحلمية. لذلك مضت حياة جموع الإخوان على النحو الذي رسم لها: جماعات متآلفة أو غير متآلفة تقرأ كتبا أعدت لها بدقة وعناية فائقة وتتلوا أوردة أختلطت فيها آيات الكتاب الكريم بكلام الحكماء وغير الحكماء من فقهاء الجماعة وعلمائها !! وتوسعت الجماعة في علاقاتها بالناس من أجل مزيد من الأعضاء والأحباب والممولين فافتتحت العيادات والمستوصفات التي تقتضي من روادها أجورا رمزية مادية أو معنوية تتراوح بين مقابل قطعة قطن أو دعوة مباركة.

وأستطاعت الجماعة باسم الدين أن تجذب إليها كوكبة من أعظم من عرفتهم مصر في عالم الطب والدواء أكاد أذكر منهم أنور المفتي ونبوي المهندس وغيرهم من أبرع الأطباء والجراحين والمحللين. ومع مرور الأيام اصبحت هذه المراكز الطبية مناطق جذب هائلة لمزيد من الأتباع والأعضاء. وتردد اسم المرشد الواعظ في كل مكان وعلى كل لسان وبلغ الأمر قمته عندما أصدرت الجماعة من بعد المجلة جريدة تحمل رمزها وشعارها وتنطق باسمها وتزينها كل صباح صورة الإمام المرشد مقرونة بكلمة ملتهبة تارة وهادئة تارة أخرى حسب تغير الظروف

والأحوال. والأمام في مثل هذه الجماعات معصوم من الخطأ والعياذ بالله والكمال لله وحده وتعليماته نافذة وإشاراته أوامر لا نقاش فيها ولا جدال. واكتملت الصورة عندما أضافوا إلى اسم المرشد كلمة الإمام ولبس العمامة وألقى العباءة على كتفيه واتخذ له من الأتباع حرسا من خلفه ومن بين يديه مفروض أن يحفظه ولكنه لم يمنع عنه أمر الله عندما جاء.

ويبدو أن الحرس القديم من قادة الإخوان المسلمين ممن ضمتهم الهيئة التأسيسية ومكتب الإرشاد كان غافلا عن الغزو الذي يجري من وراء ظهره ويكاد يطبق عليه أو ربما كان بعضهم آملا أن يرد الله الغزاة بكيدهم فلا ينالوا شيئا. ثم لما تنبه الحرس القديم كان ذلك بعد فوات الآوان تماما كما حدث لأعضاء البرلمان في بيزنطة عندما أطبق عليهم الفاتح وهم بعد يتناقشون أفاتح هو أم من الغزاة الطامعين !!!

وليس من المقبول ولا المعقول أن نتكلم عن الغزاة الفاتحين دون أن نتكلم عمن قادوا الغزو ونفذوه. ومن الإنصاف أن نقول أن الغزاة في مجموعهم قد انقسموا إلى قسمين قسم يعلم ما هو مقبل عليه أو مدبر له وهؤلاء هم القادة الحقيقيون من الغزاة وقسم سيق كما يساق الجنود إلى ساحة الرحى يعلمون أنهم

مقبلون على حرب أو جهاد كما يسمونه في جلساتهم ولكنهم لا يعلمون باليقين ضد من يجاهدون ومن أجل أي هدف يحاربون. وهؤلاء كانوا هم الكثرة الغالبة وهم عادة وقود الحرب وضحاياها عفوا بل ورثة الجنة من الشهداء كما كان يقال لهم. وأما القلة التي نتحدث عنها ونحن نعرض لمشهد الغزو فهم مجموعة من أولئك الذين مازالوا على شبابهم وحيوتهم لم يتعرفوا على الدعوة إلا في الأربعينات وهم في الأغلب الأعم من رجال القانون محامون وقضاة وهم الصفوة التي اختارها الشيخ الجليل بنفسه فلا رشحهم له أحد ولا توسط لهم لديه أحد وإنما كان الفيصل في اختيارهم هو ذكاء الشيخ الداعية وقدرته على الاستقطاب وفراسة حباه بها الله مكنته من كشف ما تخفي الأعين والنفوس في بعض الأحيان!!

هؤلاء هم الذين غزوا دعوة الإخوان المسلمين عن علم وربما عن غير تدبير من مرشد الدعوة وإمامها. وهؤلاء هم الذين غافلوا رجال الدعوة من الحرس القديم وسحبوا الكراسي من تحتهم وهم جالسون عليها وسحبوا الأبسطة من تحت أرجلهم فسقط منهم من سقط وانصرف عن اللعبة كلها من أنصرف ونجا منهم بنفسه من مكنته الظروف من الهرب وإن كان هربه قد

اقترن دائما بدعوى أنه هارب بدينه أو مهاجر في سبيل الله. وعندما زال الخطر وتبددت المخاوف عادوا وقد غدا أكثرهم من الأثرياء ورجال الأعمال وتبين أن الجهاد في سبيل النفس والمال قد يطغى أحيانا لدى كثير من الناس على الجهاد في سبيل الله بالنفس أو بالمال سواء بسواء.

وللحقيقة فإن القادة الستة الذين قادوا جيوش الغزاة في أول الأمر والذين لا أفهم حتى الآن كيف أجتمعوا على قلب رجل واحد- سرعان ما ثبتت أقدامهم وارتفع منهم إلى أعلى المناصب في الدعوة من ارتفع وتولى الباقون مسئوليات جسام لا أريد أن أفصح عنها الآن ونحن بعد في غمرة الفرحة بنجاح الغزو والفتح المبارك حتى لا يفسد المشهد وتضيع الحبكة المسرحية التي بدأها واضع السيناريو وأبرزها بنجاح المخرج ببراعة فائقة.

ولقد جف القلم مني وأنا أختم هذا المشهد فقد عرفت قادة الغزو كلهم وجادلتهم وجادلوني وخاصمتهم حينا وخاصموني ولقد قضى منهم أربعة نحبهم وأنا على حبي لهم وإعجابي ببعضهم ومازال اثنان منهم ينتظرون قضاء الله فيهم ولست أملك لهم إلا الدعاء أن يسبغ الله عليهم نعمة الصحة ودوام الاستغفار.

أما الأربعة الذين رحلوا إلى جوار ربهم فأولهم وأولاهم

بالذكرى مات يوم أفرج عنه ورفع عنه تحديد الإقامة ومن سخريات القدر أن يأتي مندوب عن الرئيس السادات صباح يوم من أيام شهر إبريل عام ١٩٧١ لينقل إلى الراحل تهاني الرئيس بالإفراج عنه ثم يعود فيأتي في مساء اليوم ذاته ليؤدي نائبا عن الرئيس واجب العزاء !! لقد كان الراحل من أكثر من عرفتهم تدينا وإخلاصا وإقبالا على الناس وعلى دعوة الإصلاح وكان يلتمس العذر لكل من أخطأ حتى اسمته زوجته بـ"محامي الضعف البشري" وكان أكثر الغزاة بعدا عن العنف حتى لقد قيل عنه أنه غزا الدعوة بقلبه وفكره لا بسيفه ويده. بل لقد حاول أكثر من مرة دفع المرشد الثاني إلى حل النظام السري للجماعة على نحو ما سنرى.

وعندما أشتد الخلاف بين الثورة والإخوان طلب منه أن يختفي كما فعل غيره من القادة خشية القبض عليه فأجاب ساخرا هادئا مؤمنا"أنا رجل ضخم الجثة في مقدور جندي بسيط أن يجدني دون أدنى عناء" وبقي في بيته وقبض عليه فيه ولم تفارق الإبتسامة وجهه أبدا لا وهو في محبسه ولا أثناء محاكمته ولا في الفترة القصيرة التي قضاها بين جدران السجن مكبلا بالقيود ولا وهو قابع في بيته عندما تحددت إقامته حتى أذن الله أن يختاره إلى جواره. إن من حق هذا الرجل الكريم أن أشهد له بأنه منبت

الصلة بالإرهاب فهو مؤمن والمؤمن لا يقتل ولا يرهب أخاه حتى ولو كان على غير دينه.

وأما ثاني الغزاة الأربعة الذين رحلوا فدمي من دمه وكان مغامرا بطبعه وكان حسن الحظ عندما أفلت من الفخ الذي نصب له لاعتقاله ثم أفلت من سياج محكم من رجال الأمن والمباحث وغيرهم. وكان في ذلك على النقيض مما أصاب المشير عبد الحكيم عامر فكلاهما دعى إلى العشاء في إستراحة منشية البكري من أجل المصالحة أو الوفاق الله أعلم ولكن عامر عاد يومها إلى بيته بصحبة موكب يليق به ومنه نقل إلى حيث لقي ربه. أما الآخر فقد رحل رحلة جديرة بأن يتلقفها مخرجو الأفلام والمسلسلات. فبعد أن انتهى لقاء الراحل مع الرئيس صحبه عامر إلى باب الحديقة في الخارج وأسر في أذنه ألا يعود إلى بيته فإنه يخشى أن يكون قد دبر له أمر بليل يومها قال له الراحل مشفقا عليه من أمر مماثل"شكرا وأرجو أن تأخذ أنت حذرك يا حكيم..." واستنكر عامر أن يخطر ذلك على بال محدثه فوجه إليه الحديث قائلا"... إلا أنا. ولكن يبدو أن مثل هذه الأمور لا يكون لها في دنيا السياسة استثناء ولا يقبل فيها استبعاد. فقد دار التاريخ دورته وجاء دور عامر فما أفلت ولا قاوم ولا وجد من

يكشف للناس سره في صدق وأمانة بعيدا عن البيانات والتحقيقات!!

المهم كانت قصة هروب الراحل الحسن الحظ أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة ذلك أنها لم تكن هروبا واحدا بل كانت سلسلة من الحلقات والمشاهد صاحب كلا منها هروب مختلف. ومن تصاريف القدر أن يكون هروبه على يد جمع بلغ التناقض فيه منتهاه فمن أقارب لا حول لهم ولا قوة إلى رجال قضاء ونيابة كانوا يوما زملاء له فحفظوا العهد وصانوه. ولقد رحل كل هؤلاء ويوم كتب الراحل قصته ونشرها على الناس كان حريصا على إسقاط الكثير من تفاصيلها واستبعاد الكثير من وقائعها وإغفال أغلب إن لم يكن كل– من تداخل فيها من أسماء فيومها كانوا كلهم أحياء فلما رحلوا ورحل هو لم يحرص أحد على أن يفتش عن حقيقة ما حدث ومن الذي أسهم فيه إما خوفا من السلطة وبطشها وإما إشفاقا على عوائل من ساهم منهم بقدر كبر أو صغر. ومع ذلك فقد نال أهل الراحل ما نالهم من هربه ولم ينج من ذلك قريب ولا بعيد . . .

ولأن هذا الراحل الثاني كان مجبولا على المغامرة ولو في غير أوقاتها فقد قضى غربته كلها في مغامرات فأثار الطلبة على

جامعتهم في المغرب عندما أصر على أن يدرس لهم القانون باللغة العربية وأن يقرن الحديث عن القوانين الفرنسية بما يقابلها من أحكام الشريعة الإسلامية. وما أن أتيحت أمامه الفرصة حتى شارك فيما عرف يومها بـ"إذاعة مصر الحرة" وكان أقصى ما ناله جزاء على ذلك حكما غيابيا بالسجن وحكما غيابيا كذلك بالأشغال الشاقة المؤقتة. وبدلا من أن يقع في بئر الأشغال الشاقة الذي نصبوه له وقع فيه غيره ممن لا ناقة لهم ولا جمل فيما ثار يومها من صراع. لقد رحل الأخ الحبيب وحاولت جاهدا أن أعود بجثمانه إلى بلده ووافق الرئيس السادات يومها على ذلك ولكن الذين استضافوه في محنته أبوا علي ذلك وقالوا"نحن أولى به ممن غربوه" وربما كانوا على حق هذه المرة.

وأما ثالث الراحلين من الغزاة الفاتحين فكان رجلا صالحا من أصل بدوي يعتز به وكان رحمة الله عليه من النوع الذي تأنس إليه ولكنك لا تعتمد عليه فقد كان إلى بداوته سريع الغضب يميل إلى المبالغة في الخير والشر على السواء عالي الصوت إذا تكلم هادئ الطبع إذا استمع. وطالما عجبت من أمر هذا القائد كيف أصبح قائدا وكيف وصل مع الجماعة إلى ما وصل إليه هل لأنه كان يعمل في هيئة سياسية عربية أم لأنه كان على صلة قديمة

بحركات التحرير في المغرب العربي أم لأنه كان شديد الارتباط بالراحل الأول ملازما له ملازمة كاملة حتى لقد اختار زوجته لمجرد أنها من عائلة ذلك الراحل الكريم. وعلى الرغم من أن نصيب هذا الرجل الصالح كان هو الأشغال الشاقة المؤبدة إلا إن هذه المدة المؤبدة قد تحولت بقدرة قادر إلى فترة مؤقتة ربما لأن من كان الأمر يومها بيدهم قد أدركوا كما أدركت أنا من قبل- أنه لم يكن قائدا من قادة الغزاة وإنما كان راغبا في إختيار طريقة للصعود لا تشوبها شائبة يمكن أن تتعارض مع طبيعته وأصالة معدنه. فكان بين القادة بمثابة أمين السر في كل إجتماع يرصد كل كلمة أو حركة فيكتبها دون أن يكون له فيها رأي يبديه أو يدافع عنه.

أما الراحل الرابع فقد جاء صلاح أمره من وجهة نظره- مصادفة على غير موعد ولا تدبير. فقد كان الرجل وقتها من أهل الضبط والربط وكان مسئولا عن ذلك في مدينة متواضعة من مدن ما يعرف يومها بمديرية البحيرة ثم لما أخذنا بالحكم المحلي المزعوم رقيت المديرية فصارت محافظة. وكان الشيخ الواعظ الجليل قد اختط لنفسه خطة مؤداها أن ينتقل بين الناس وبذلك يسعى إليهم دون انتظار لسعيهم إليه. وكان شأنه في ذلك شأن

المصلحين والدعاة على زمان القرون الوسطى وبدايات عصر التبشير. وتصادف أن اتصل بالراحل الرابع صديق وذكر له أن الشيخ الجليل مار بإذن الله بالقرية التي تخضع لسلطانه وأوصاه خيرا به. وكان أقصى ما تصوره الصديق ألا يصادف الشيخ ما يعكر صفوه أو أن يحال بينه وبين لقاء الناس.

وكان الراحل الرابع يومها من أهل الدنيا وكانت صلته بالله قائمة على نحو ما جبل عليه أغلب الناس ولكني أشك كثيرا في أنه كانت له بالجماعة أو بالشيخ صلة أو حتى مجرد علم. ولذلك فإن ما حدث كان مفاجأة للصديق وللشيخ وللراحل الكريم ذاته إذ سرعان ما تبدت تجليات الشيخ الجليل وتركزت على مضيفه وما أن أنقضى الليل وأصبح الصبح حتى كان ضابط الشرطة واحدا من المعجبين بالشيخ الجليل ولم تمض شهور حتى أضحى المعجب مولعا وغدا المولع عاشقا. وما أن انتقل الراحل إلى القاهرة ليعمل في بلوكات النظام والمعروفة اليوم بالأمن المركزي مع إختلاف بين النظامين في كل شيء حتى جعل سكنه على مقربة من سكن الشيخ الجليل ومركز قيادته وغدت حياته كلها رهنا بالدعوة بالصورة التي فهمها أو بالأحرى التي أراد أن يفهمها بها فقد تلقاها عن الشيخ ثم بلورها على النحو الذي يلائمه ويتفق مع

نشأته ودراسته وما أختاره لنفسه من مهنة.

وعندما احتفل الفاتحون بنجاح عملية الغزو عهد إليه برآسة قسم من الأقسام هو قسم الوحدات والذي سرعان ما تم ابتلاعه في ظروف لا يكاد يعلمها إلا من ساهموا في ابتلاعه. وأنتهى الأمر بالراحل الرابع كما سنرى إلى أن عمل لحسابه وحده تارة ومع الإخوان أو ضدهم تارة أخرى وكانت له في ذلك صولات وجولات قد نشير إلى جانب منها وقد نمتنع عن الخوض في جانب آخر أو حتى مجرد الإشارة إليها خشية ألا يكون علمنا بها كاملا وعن يقين رغم ما ردده الناس عنها من شائعات وما أقسموا عليه من أحداث. والحق أنه كان لهذا الراحل الرابع أتباع ومريدون يأتمرون بأمره ولو فقدوا في طاعته حياتهم أو حريتهم على أقل تقدير. وبقدر ما كان يشع به وجهه من سماحة وما يعلوه من ابتسامة لا تكاد تفارقه فقد كان من وجهة نظري غامضا أشد الغموض وما حادثته أو ناقشته إلا وانتهى الأمر بيننا إلى خلاف فكنت أوثر أن أتجنبه خشية أن أغضب من كانوا يرتبطون معه بصلات ربما تفوق صلة الأخ بأخيه.

وعندما رحل الرجل وأذن الله بأن ينقله إلى جواره كانت قد مضت عليه سنوات خارج القضبان وكان اهتمامه بالدعوة قد قل

بقدر ما زاد اهتمامه بالدنيا وما تحتاجه من مال وزاد.

رحل هؤلاء الأربعة وبقي اثنان لتكتمل عدة القادة ستة حتى أطلق عليهم الناس من يحبهم ومن لا يحبونهم على السواء اسم "لجنة الستة". أما أول الباقين فإنه بقدر ما ساهم في عظائم الأمور بقدر ما نجا من المحنة ومعقباتها ويكفي أن ما ناله لم يزد عن شهور قضاها في المعتقل. وكان المعتقل يومها أشبه ما يكون بوخز الإبر إذا ما قورن بالمحاكمة وما يسبقها وما يأتي بعدها. وعندما انتهت خدمته في المعتقل عاد إلى عمله فبلغ فيه مبلغ المستشار أو نحو ذلك. ولقد عرفته بحكم المصاهرة التي جمعت بين أسرتينا منذ سنوات طويلة ولكني أستطيع أن أعد ما سمعته منه من كلمات على أصابع اليد الواحدة فقد كان ومازال قادرا على الصمت قدرة هائلة فإذا عن له أن يتكلم فكلامه عمل وعمل يصعب على غيره أن يقوم به. ومع ذلك نجا والله ينجي من يشاء!!

وأما ثاني الاثنين فقد عرفته أكثر من نصف قرن وكان مسئولا عن قسم الطلبة في الجماعة. وكان هادئا يجبر الغاضب على أن يزول عنه غضبه ويحمل المجادل على أن يدع المجادلة وأن يصغي لمنطق العقل. وكان إذا تحدث أفاض وأبدع حتى أنه إذا

خطب الجمعة نسي نفسه وأنسى المصلين أنفسهم فما ملوه ولا استعجلوه. وليس في استطاعتي أن أتصور أن مثل هذا الشخص يمكن أن يشترك في مؤامرة أو أن يبيت أمرا بليل أو أن يغدر بأحد أو أن يحمل في نفسه غلا أو كراهية أو أن ينطق بغير ما في قلبه.

لذلك طالما ساءلت نفسهي عن هذا القائد الذي لم يولد من أجل حرب أو تآمر كيف شارك في الغزو وهل تصادف دخوله مع الغزاة الفاتحين فظنه الناس منهم أم أنه كان معهم ولم يكن منهم. ولم أجد عند نفسي ما تجيب به وأغلب الظن أنني لو سألته أو سأله غيري لما وجد عنده إلا ابتسامة هادئة أو ربما ضحكة هادئة كذلك.

ولقد مضى القادة الستة في مخططهم إن كان لهم مخطط واختلطوا بأهل الجماعة التي احتلوها فمنهم من أحبهم ومنهم من أخذ حذره منهم. وأغلب الظن أنهم لم يحفلوا بمن أحب ولا بمن كره فقد تركز حبهم الأكبر في الوصول إلى ما سعوا إليه منذ البداية. وانتهى مشهد الغزو ولكن مقاومته لم تنته على نحو ما سنرى في مشاهد قادمة.

"ستار"

المشهد الثالث

دماء على ثياب الجماعة ...

استتب الأمر للغزاة الفاتحين ومجلس قيادتهم ودانت لهم فصائل الدعوة بغير مقاومة ظاهرة ربما عن استسلام أو اقتناع. والحق أنهم كانوا على قدر من الذكاء فحافظوا على عدد من الطقوس والشكليات. من ذلك أنهم أبقوا على الهيئة التأسيسية والتي كانت بمثابة مجلس الشورى الخاص بالجماعة فجعلوها مكلمة يطول فيها النقاش فلا ينتهي إلى شيء يذكر وإن انتهى إلى قرار فهو مجرد رغبة نادرا ما تجد سبيلها إلى نفاذ أو حتى مجرد استجابة. وتمسك الغزاة بمكتب الإرشاد والذي يعد السلطة العليا في الجماعة بعد أن ملكوا ناصية أمره وطوعوه لرغباتهم فأخرجوا منه من عارضهم أو وقف في طريقهم أو حملوه على أن يحمل عصاه وأن يرحل غير مأسوف عليه. ومع ذلك فقد غدا مكتب الإرشاد أشبه ما يكون بدار الكتب تودع فيها الكتب فتحظى برقم الإيداع فيها تزين به صفحاتها دون أن يكون للدار شأن بهذا الكتاب ودون أن تملك القدرة على مجرد الاعتراض عليها أو أبداء ملاحظة بشأنها حتى ولو تعلقت بطباعتها أو نوعية الورق الذي طبعت عليه.

وبقيت عاطفة الثلاثاء وإن بدأت تلفظ أنفاسها بعد أن انشغل

عنها فارسها وخطيبها فأنفض عنها من كان يروي عطشه منها وغدت كالنبع الذي هجره أهله لا من أجل نضوب مائه ولكن لأن الماء قد توافر من منابع أخرى ربما أكثر نقاء وربما أشد تدفقا وربما أكثر نفعا. وأحاط الغزاة الستة بالإمام المرشد فما تركوا لأحد من سبيل يصل منه إليه ولم يكن ذلك عن ضعف أو غفلة من الإمام والعياذ بالله ولكن كان عن حب للستة ملك عليه قلبه ووجدانه حتى لم يعد فيهما لأحد غيرهم مكان أو مجال.

وعلى الرغم مما هو مشهود به للقادة الفاتحين أو بعضهم على الأقل- من ذكاء وفطنة فإن حلاوة النصر وبريق الغنائم غالبا ما يعمي الأبصار وربما البصائر كذلك ويصرف العقول عن التفكير في كل ما يحيط بالمرء من مخاطر وما يتهدده من تجمعات تنتظر يوما تسنح الفرصة فيه لها للإنقضاض على سلطان من احتل أرضها بغير معركة ولا قتال. ولقد كان ذلك حال السادة الفاتحين ذلك أنهم لما استقر الأمر في ايديهم وكسروا شوكة الهيئة التأسيسية ومكتب الإرشاد واحتلوا جانبا كبيرا من المناصب التي هي مفاتيح الدعوة ومكامن قوتها ظنوا انهم قد باتوا آمنين من أي غدر أو تآمر يمكن أن يأتيهم فجأة أو يدبر لهم في خفاء. وعلى الرغم مما أملاه عليهم التاريخ والأيام من دروس فإن درسا واحدا لم يعوه وهو أن الحذر قد يؤتى من مأمنه. فمن مأمنهم جاءهم

الخطر وهدد سلطانهم بل وهدد الجماعة كلها وأوشك أن يدفع بها إلى حافة الهاوية إن لم يكن قد أقدم على ذلك بالفعل.

ذلك أن سرطانا أسموه الجهاز السري تارة والنظام الخاص تارة أخرى كان قد أصاب جسد الجماعة في وقت لم أستطع تحديده ولا دلني عليه أحد ممن سألتهم وكنت أثق في علمهم وصدقهم. وخلايا السرطان كما يقول الأطباء تكمن في جسد كل إنسان دون أن يحس بها أو تكون لها آلآم يشعر بها حتى يأذن الله لها أن تتحرك وساعتها تأتي على كل شيء مرت عليه أو تشبثت به. ولقد كان ما يفعله السرطان بالناس هو ما فعله النظام الخاص بدعوة الإخوان المسلمين من حسنت نيته منهم ومن ساء قصده وأنحرف سواء بسواء.

ويوم تحركت خلايا سرطان الجهاز السري فإن جموع الإخوان ممن لا ناقة لهم ولا جمل في إدارة الدعوة أو توجيه سيرتها قد تساءلوا فيما بينهم: متى انشئ هذا الجهاز ومن هم مديروه ومن هم أفراده وجنوده وما القصد من قيامه وما هي أهدافه ومراميه. وربما لم يجدوا جوابا على تساؤلاتهم وربما زعم من لا علم له أو نقص علمه أنه قد تشكل بقرار من مكتب الإرشاد وأعترض آخر وقال بل بقرار من الهيئة التأسيسية وقال خبيث يحاول أن يداري خبثه بل هو من صناعة الشيخ الجليل وهو يسير الآن طوع أمره

وإرادته وأنه قد أنشئ تأكيدا أو استجابة لما أمر به الله المؤمنين من أن يعدوا ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل يرهبون به أعداء الله والذين هم أعداء الدعوة بطبيعة الحال. وسوف نرى فيما سنعرضه من مشاهد كيف أن تحرك هذا الجهاز هو الذي أدى إلى سفك دماء لوثت ثوب الجماعة الأبيض وهو الذي أدى في النهاية إلى مقتل الإمام. فهل سعى الإمام إلى تشويه صورة الدعوة التي عاش لها بإنشاء هذا الجهاز أم أنه سعى إلى حتفه هو نفسه عندما دفع الجهاز إلى ما قام به أم أن الجهاز هو الذي اندفع من تلقاء نفسه ففعل ما فعل وقتل من قتل أم أن وراء الأكمة ما وراءها كما يقول أجدادنا العرب في أمثالهم. صدقني أيها المشاهد العزيز إذا قلت لك الله أعلم أما أنا فلست أعلم ولا أدري وقديما ذكروا أن من قال لا أدري فقد أفتى.!! فلنتابع معا على خشبة المسرح عددا من المشاهد لعلنا نجد فيها ما يشفي غليل المعرفة وفضول الباحث عن الحقيقة ونكشف السر وراء هذا الجهاز والمحرك الحقيقي له وأفراده والذين ينفذون أوامره.

وقبل أن نعرض المشاهد لابد أن ننقل صورة شبه كاملة لما كان يجري في هذا الجهاز: فبعد أن يمر المرشح للعمل فيه باختبارات دونها بكثير اختبارات القدرة واللياقة والتحمل التي تجريها المعاهد العسكرية والأمنية على السواء ويتقرر قبوله ويدخل في من كانوا

يطلقون عليهم"رهبان الليل وفرسان النهار" تجري معه طقوس لا أدري من أين جاءوا بها فلقد درسنا تاريخ الدعوة الإسلامية فما رأينا في فترة نضارتها شيئا من هذه الطقوس ولا سمعنا عن يمين تعطى وقسما يتلى مع أن المسلمين الأوائل كانوا كلهم من المجاهدين في سبيل الله يتمنون الموت ويطلبون الشهادة مصداقا لشعار الجماعة:"القرآن دستورنا والجهاد طريقنا والموت في سبيل الله أسمى أمانينا" أو شيئا مثل ذلك.

كان أول تحرك مؤثر لهذا الجهاز عملية خائبة ألقى فيها اثنان من أعضاء الجهاز قنابل يدوية خائبة كذلك ترتبت عليها خسائر وإصابات هي الأخرى خائبة تماما. وكأنما كانت الحكومة تنتظر هذا التحرك بصبر فرغ فاستطاعت أن تأتي بالخائبين وأن تعرضهم على القضاء. وكان المرحوم المستشار واسمحوا لي أن أصفه بالشهيد أحمد الخازندار يومها رئيسا لمحكمة الجنايات فأدى الرجل أمانته وأصدر حكمه على المتهمين بما أملاه عليه ضميره والقانون. وفي رد فعل غبي عاجل صدرت الأوامر إلى إثنين من جنود الشيطان البواسل بتصفية المرحوم أحمد الخازندار جسديا بعد أن أخطأ وطبق غير شرع الله !!! ليكون عبرة لغيره ممن لا يريد أن يعتبر. وترصد اثنان من كتيبة إبليس للرجل الجليل على مقربة من بيته وعاجلاه برصاصات الغدر فأردياه قتيلا وتمكنت

الشرطة من القتلة فنالا ما أستحقا من جزاء وفقا لقانون استند في تحريم القتل بغير الحق إلى القرآن الكريم الذي اتخذته الجماعة دستورا لها فكان دستورا لمن أهدروا أحكامه واتبعوا ما تمليه عليهم نفوسهم الآثمة فسفكوا الدماء وحللوا ما حرم الله. ومرة أخرى جاء رد الفعل من جانب الحكومة على مستوى الأحداث وأصدر رئيس الوزراء يومئذ محمود فهمي النقراشي في أواخر ١٩٤٨ أمرا بحظر نشاط جمعية الإخوان المسلمين وإغلاق مركزها العام في القاهرة ومقارها وفروعها في الأقاليم وكل ما يتصل بما كانت تمارسه من نشاط.

وكانت اللعبة لم تنته بعد بين الجماعة والحكومة فقد كان مفروضا أن يكون قرار الحل أو الحظر أو الغلق هو نهاية المطاف وكان على الشرطة بعد ذلك أن تطمئن من يوم إلى يوم على أن الفروع والمراكز مازالت مغلقة وأن من عينتهم على أبوابها مازالوا يقظين لم تأخذهم سنة ولا نوم على نحو ما نراه اليوم أحيانا أمام المؤسسات والسفارات قليلة الأهمية. وكان على أعضاء الجماعة ممن اعتادوا التواجد في مقارها أن يفضوا اجتماعاتهم وأن يكتفوا بصلاة تؤدى في مسجد أو لقاء يعقدونه في مسكن. ولكن الوقت لم يسعف أحدا من الإثنين فأما أعضاء الجماعة فقد ظنوا أو بالأحرى أحبوا أن يظنوا أن الحظر قد نال

الجمعية وأعمالها الخيرية والثقافية أما الجماعة بأهدافها ونشاطها فلا شأن لها بذلك. لذلك فقد رأوا وأصروا على أن الجماعة ليست محظورة واتهموا من جادلهم أو نصحهم بأنه واهم أن يحسب أنهم سوف يخضعون لأمر واقع أو قرار صادر. وتدفقت الدماء من كل جانب زكية وغير زكية طاهرة وغير طاهرة فلوثت ثوب الجماعة حتى أغرقته وتتابعت المشاهد كأنما هي حرب البسوس قامت بين قبيلتين قبيلة الجماعة من جانب وقبيلة الحكومة من جانب آخر.

ففي صباح يوم ٢٨ ديسمبر عام ١٩٤٨ على ما أذكر وصلت سيارة رئيس الوزراء ووزير الداخلية في الوقت ذاته محمود فهمي النقراشي إلى سراي الداخلية بحي لاظوغلي بالقاهرة لتجد في انتظارها كوكبة من رجال وزارة الداخلية حراس الأمن وأساطينه كما جرت العادة بذلك وهي عادة من عادات النفاق السياسي والإجتماعي التي ورثناها من أجدادنا الفراعنة بناة الأهرام ورعاة السياحة غفر الله لهم شركهم وما كانوا يعبدونه من أنعام. وتقدم الجميع وعلى رأسهم قمة البوليس السياسي والذي غير اسمه وجلده بعد ذلك وغدا يسمى بمباحث أمن الدولة بعد أن أصبحت السياسة وأمن الدولة قرينين متلازمين. تقدم الرجل وإلى جانبه مدير الأمن العام ووكيله وجوقة من الضباط على إختلاف ملابسهم

ورتبهم وأعمارهم. وغادر الرئيس السيارة واتجه كما اعتاد إلى مصعد الوزارة والذي منع الناس من ركوبه أو الإقتراب منه منذ غادر رئيس الحكومة مسكنه قبل وقت ليس بالقصير. وأنطلق كبار الضباط وراءه يسرعون الخطا ولم يلتفت أحد منهم إلى أن ضابطا صغير الرتبة قد التصق بالرئيس وكأنما هو مكلف بحراسته فلا يستطيع أحد أن يقترب منه. وكأنما أعمت العادة والنفاق معها عيون القادة العظام عن هذا الوافد الذي لو تأملوه لأنكروه وربما افتضح أمره ولكن للقدر تصاريف لا يملكها إلا الله فقد كان أجل النقراشي قد اقترب ولم يبق إلا أن يصل موعده ولم يبق كذلك إلا أن يتقدم ملك الموت ليقبض روحه الطاهرة ويقول العوام في أمثالهم"ساعة القدر يعمى البصر". وعندما اقترب الركب من المصعد تأخر اللواءات والعمداء حتى يدخل الرئيس إلى مقبرته الأولى فلقد دخل الرئيس إلى المصعد مصحوبا بقاتله أو بحارسه المزيف وحده. وقبل أن يغلق باب المصعد كانت رصاصات الغدر قد استقرت في جسد الرئيس وسط ذهول الحاضرين وربما الغائبين كذلك. ولقد روى لي واحد من شهود العيان من ضباط الشرطة يومها ما جرى وقال لي: لا تصدق أن أحدا منا قد تنبه أو تحرك لقد عقدت المفاجأة ألسنتنا وتسمرت بالأرض أقدامنا فلم نستطع أن ننطق أو أن نتحرك كأنما هو يوم الهول أو يوم القيامة.

وحاول القاتل الهرب ولكن الناس وليس الضباط كانوا قد تجمعوا وتم القبض عليه وتولت النيابة التحقيق. لقد اعترف القاتل بجرمه وأرشد عن زملائه الذين انتشروا في أرجاء حديقة الوزارة ليغطونه أو يعينوه على الهرب فما أعانوه ولا نفعوه وإنما لاذوا بالفرار ونالهم اعترافه فعادوا مكبلين بالقيود.

لقد كشفت التحقيقات يومها عن أن ضابط شرطة من الإخوان هو الذي أشرف على المؤامرة ولكن التحقيقات لم تكشف عن الرأس المدبر والمخطط الأول للحادث ولقد سكت عنه من قبض عليهم وفاء لقسم أدوه أمام مفتي الجهاز الخاص وأئمته. أما الضابط الذي أشرف على التنفيذ فقد أبى أن يذكر شيئا عن المدبر الأعلى ولا عمن أمره بأن يفعل ما فعل ثم لم يمهله الآجل حتى يراجع نفسه فقد حاول الهرب والشرطة تنقله من الإسماعيلية على ما أذكر إلى القاهرة فألقى بنفسه في الرياح الكبير وعاجلته القوة بوابل من الرصاص فغرق وغرقت معه أسرار لو تكشفت يومها لكان هناك كلام كثير حول ما تم وما سيتم من تدبير.

ويوم قتل النقراشي أقسم من خلفه على كرسي الرئاسة لينتقمن من قتلة صديق عمره ورفيق نضاله ضد رموز الاحتلال وكل من أطلق عليهم يومها صفة "الخونة دون أن يحاول أحد أن يعرف من الخائن ومن الذي تمت خيانته. وتم بعناية فائقة وسرية بالغة

إعداد السيناريو الخاص بالإنتقام وتركزت الحبكة كلها في أن يأتي مقتل مرشد الإخوان في صورة قريبة من تلك التي قتل بها النقراشي. وقيل وقتها أن مقتل الإمام كان هدية الحكومة للملك فاروق في عيد ميلاده الحادي عشر من شهر فبراير عام ١٩٤٩, ويومها كذلك طويت أوراق المؤامرة وتوقف التحقيق فيها واعتبر الفاعل مجهولا رغم أنه كان معلوما علم اليقين وزيادة. وكان موظف في الجامعة العربية قد شاهد الحادث وهو يدخل إلى جمعية الشبان المسلمين والتقط رقم السيارة القادمة من سوهاج والتي فر بها الجناة ثم لما توجه إلى قسم الشرطة للإبلاغ عما شاهده نصح بالكف عن هذا الهذيان الذي يردده وذلك بعد أن نال حظه من الضيافة والتكريم. وانصرف الشاهد الصادق من قسم الشرطة بعد أن تمت إهانته وأيقن أن الحادث والإبلاغ عنه فوق مستواه ومستوى أمثاله من الناس ولكنه أودع رقم السيارة في حافظته وظل الرقم بها سنوات حتى أذن الله أن تتكشف المؤامرة كاملة غير منقوصة فقد جاءت ثورة يوليو لكي تعيد التحقيق في مقتل حسن البنا ولقد اسفرت التحقيقات والمحاكمة عن متهمين أربعة بالإضافة إلى الرأس المدبر والمحرض الأكبر وكان المتهمون هم أحد مديري مديريات الصعيد وقد أودع السجن وفقد فيه بصره ومات غير مأسوف عليه واثنان من رجال الشرطة السرية وقد

نالا جزاء ما أقدما عليه ورجل يشغل مركزا هاما في هيئة الشرطة يومئذ وأختار هو نوعية الحكم عليه وطريقة تنفيذه فقد وصلت إليه الشرطة في مكتبه وقد قطع شرايينه وفاضت روحه بين أيديهم. وكأنما أراد أن يحاكم نفسه وأن ينفذ الحكم بنفسه كذلك إما خجلا مما فعل وإما استكبارا من أن يقبض عليه أو أن يساق إلى المحاكمة.

لقد روى لي المستشار منير دلة رحمة الله عليه والذي استضاف الإمام المرشد منذ تتابعت الأحداث بعد مقتل الخازندار أن مشاورات طويلة جرت بين ممثلين عن الحكومة وحسن البنا وأن المرشد قد استجاب لضغوط الحكومة عليه حقنا للدماء ونشر بيانا في جريدة الأهرام تحت عنوان:"ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين". وانطوى البيان على عبارات كانت ومازالت محل غضب أعضاء النظام الخاص وتساؤلات أعضاء الجماعة من المعتدلين ومن غيرهم على السواء. والحق أن هذا البيان قد أنطوى على عبارات كانت ومازالت محل دراسة هواة التحليل والتخريج. فهل كان المرشد مضطرا لإصدار هذا البيان حتى تتقدم المباحثات المتعثرة بينه وبين الحكومة أم أنه قصد إبعاد الشبهة عن الجماعة من إنها جماعة إرهاب لا إصلاح أم كان النظام الخاص قد تمرد على مرشد الجماعة وشقت قيادته عصا الطاعة للإمام وهل البيان

كان من صياغة المرشد أم أن أسلوب البيان لم يكن أسلوبه ولا ما أعتاده الأخوان منه من كلام أم أن هناك يد وسيطة قد صاغت البيان أو راجعته أو أدخلت عليه ما ظنت أنه كفيل بقبوله كاعتذار من جانب الجماعة للحكومة والحزب الذي كان يسيطر عليها

وجاء مقتل الإمام ليفصل بين مجموعات ثلاث مفروض أنها تنتمي لجماعة واحدة. فأما جماعة الحرس القديم ممن لم تكن لهم بما يجري صلة ولا علم فقد عز عليهم مقتل الإمام فهو رفيقهم في الدعوة والرغبة الصادقة في الإصلاح ولكن عزت عليهم كذلك أنفسهم فراحوا يستنكرون ما جرى وما يجري ويؤكدون براءتهم في كل مجلس جلسوه ومع كل صديق حدثوه وتبرع منهم من تبرع فنشر براءته على الناس عندما فتحت لهم الجرائد أبوابها ليقولوا في دعوة الإخوان أضعاف ما قال مالك في الخمر بكثير وربما زادوا على ذلك فدفعوا عددا من الكبار والصغار إلى نشر استقالتهم من الجماعة واستنكارهم لما سلكته من طريق. وراح بعض هذا الجمع من الحرس القديم ينادي في الناس إن كونوا من أهل التقية الذين عرفتهم عصور القهر في تاريخ الإسلام فاتقوا ضربة الحاكم وغضبه واكتموا عقيدتكم أو تنكروا لدعوتكم حتى يأتي الله بأمره.

وأما جماعة الغزاة الفاتحين فكانت قد توسعت واتسعت وأنضم

إليها من بهرته الغنائم فلم يجد بأسا من المشاركة فيها ومن رأى فيها جديدا فلم يجد بأسا من أن يتعرف عليه. كذلك أنضم إليهم كل من كانت له صلة بأحد من قادة الغزو صداقة كانت أو قرابة أو زمالة. وهؤلاء كانوا أول من أنفض عن الفاتحين عندما فتحت عليهم الدولة نيرانها وسلطت عليهم زبانيتها. وما من شك في أن هذه الجماعة قد نكبت في مقتل الإمام كما ينكب الصغار في مصرع عائلهم ووسيط رزقهم ولكنهم سرعان ما تماسكوا وترابطوا حتى لا تذهب ريحهم ويتبدد سلطانهم وتضيع سنوات قضوها في التمكين لفئتهم حتى فتح الله عليهم بجيش من الأنصار والأتباع. وأما جماعة النظام الخاص فمضوا في غيهم يرتعون ونظروا وتأملوا في مقتل الإمام فرأوه فرصة سانحة لكي ينادوا بالثأر له مع أنهم شركاء في مصرعه بما أقدموا عليه من عصيانه والتمرد عليه.

واجتاحت ساحة الجماعة موجات متلاحقة من التناقض والتنافر. فبينما صرفت الحكومة غضبتها عن التائبين النائبين من الحرس القديم وكظمت غيظها عن جماعة الغزاة الفاتحين طمعا في هدنة أو أمل في تفاوض فقد صبت جام غضبها على جماعة النظام الخاص قواده وجنوده على السواء. ورد النظام الخاص على الغضبة بالضربة فحاول أن يغتال رئيس الحكومة ولكنه أخطأه

وكاد رئيس مجلس النواب يومها المرحوم حامد جودة أن يذهب ضحية هذا الخطأ لولا أن خابت خطة النظام كما خابت له من قبل ومن بعد خطط ومحاولات وإن نجح أفراد النظام ومن عاونوهم في تهريب من أقدم على هذه المحاولة وكانت له بعد ذلك عودة عندما تغيرت الأحوال وتغير نظام الدولة والنظام الخاص على السواء. ثم كان ما عرف بقضية السيارة الجيب وهي قضية أخرى تحسب للنظام الخاص وتسجل في صحيفة خيبته. فقد توقفت في الطريق سيارة جيب وبالمصادفة وحدها لا بالمراقبة والمتابعة اشتبه رجال أمن في امرها وضبط من وما كان بها فإذا هو مخطط واسع المدى للتخريب والإرهاب ولقد حوكم المتهمون في هذه القضية ولكن أخطاء ارتكبها رجال الأمن يومها قد برأت ساحة الكثيرين ممن اتهمتهم النيابة وقدمتهم للمحاكمة.

وحاولت الجماعة وأوراق قضية السيارة بعد في حوزة النيابة أن تمحو أدلة الثبوت من إعترافات ومستندات فهداها فكرها الخائب كذلك إلى نسف الدور الثاني من مبنى المحاكم بميدان باب الخلق غافلة عمن يضمهم المبنى من قضاة ومتقاضين ومحامين وأصحاب مصالح وبائع متجول شاء الله أن يكون هو وحده ضحية هذا الحادث حتى ترتفع بذلك العقوبة بغير رحمة. ولقد كنت يومها شاهدا على ما جرى فقد اعتدت أن أذهب إلى عملي

مبكرا في نيابة شمال القاهرة بالدور الثالث من المبنى. ويومها اندفع إلى غرفة مكتبي حارس من حراس المبنى وطلب مني أن أغادر المكان على الفور لأن موظفي مكتب النائب العام اشتبهوا في أمر شاب يحمل حقيبة يريد أن يتركها في حجرة من حجرات التحقيق بحجة أنها خاصة بأحد المحققين فلما أصروا على منعه حاول الهرب فتبعوه في ردهات المبنى وكادوا أن يمسكوا به وهو على درجات السلم. وسارعت بالمغادرة وابتعدت بسيارتي عن الميدان بأكمله وبينما أنا عائد أرقب الأمور سمعت صوت انفجار هائل لقد نجح المجرم في مغادرة المحكمة وما أن غادر بابها حتى ألقى بالحقيبة على مقربة من بائع متجول اعتاد الوقوف أمام الباب فأنفجرت الحقيبة بما فيها من قنابل ولقي البائع مصرعه بعد أن قدم نفسه من أجل أن يرتفع بالعقوبة إلى أعلى درجاتها.

وشددت الحكومة قبضتها على أفراد النظام وبدأ هؤلاء ينتشرون في أحياء القاهرة وكان حي شبرا هو الحي الذي وقع عليه اختيارهم ربما مصادفة وربما لحكمة أدركوها. وعرفت الشرطة أماكنهم فداهمتهم في بعضها وأرجأت البعض الآخر. وكنت يومها وللمرة الثانية شاهدا على ما جرى فقد كنت أتولى التحقيق في هذه القضية والتي عرفت يومها بقضية الأوكار وكان يعمل معي ككاتب للتحقيق زميل سابق في كلية الحقوق وكنت أعلم

أنه كان يعمل بالمحاماة منذ تخرجه وأعربت له عن دهشتي لقبوله وظيفة كاتب التحقيق وهي يومها دون مؤهله. وزاد شكي وشك الشرطة عندما بدأت مداهمة الأوكار تسفر عن مجرد سخرية الساكنين برجال الشرطة وتبين أن كاتب التحقيق كان ضالعا مع الجماعة أو أنه عنصر من عناصرها. ولما أرادت الشرطة أن تصل إليه كان قد غادر البلاد وغاية علمي عنه أنه قد لجأ إلى دولة اشتهرت بحيادها وصار هناك أستاذا للقانون ولا أدري كيف بلغ هذا المبلغ وحظي بهذا التقدير !!

وحسبي من مشاهد الدماء ما تذكرت وفصلت. ولعلي إن عدت إلى الجماعة أو ما أنقسمت إليه من فصائل أن أصل بالقارئ إلى ما قصدت من رواية حكاية الإخوان المسلمين وكيف أنقلبت دعوة التربية والإصلاح إلى دعوة للعنف والإرهاب. والحق أنه ليس من السهل ولا من المطلوب أن نعرف أو أن نكشف عن الحال التي وصلت إليها الجماعة بعد مقتل الإمام ولكن الذي يعنينا هو أن مجموعة الفاتحين قد نجحت إلى حد كبير في تهدئة خواطر الحكومة والقصر وضمنت إلى حد كبير كذلك أن يؤدي ذلك إلى فض الاشتباك معهما وأن تعود المودة أو تدوم الهدنة حتى تلملم الجماعة نفسها وتعيد ترتيب أوراقها وتحجيم ما أصابها من خسائر أو لحق بها من إصابات.

وانفض عام ١٩٤٩ أو كاد وكانت وزارة حسين سري قد جاءت من أجل أن تجري انتخابات حرة لمجلس النواب ولو لمرة واحدة في تاريخ مصر الحديثة والقديمة على السواء. وتمت مع نهاية العام انتخابات ربما لم تعرفها دولة نامية من قبل واسفرت على غير ما توقع القصر وسائر الأحزاب عن فوز ساحق لحزب الوفد القديم قبل أن يتغير اسمه إلى الجديد ليضمن الترخيص له بالظهور. وكانت حكومة حسين سري التي لا تنتمي للأحزاب فرصة سانحة لجماعة الإخوان المسلمين ليبدلوا ثيابهم ويزيلوا ما علق بها من آثار الدماء فقد انصرف عن الجماعة من انصرف وأعاد الفاتحون الجدد أو أهل الوسط إن صح التعبير- تنظيم صفوفهم. وقبع أفراد النظام الخاص في مكامنهم انتظارا لفرصة ربما تسنح لهم ليعيدوا ما بدؤوه من قتل وتخريب.

وكان أول ما صادف أهل الوسط من الغزاة الفاتحين هو مشكلة اختيار مرشد جديد. ولم يكن من السهل على أفراد الجماعة أن يقبلوا إماما جديدا قد يقبلون من يدير أمور الجماعة ويسمى تجاوزا مرشدا لها ولكن أن يقدم لهم من يرضونه كما ارتضوا حسن البنا فقد كان هذا أمرا أقرب إلى المستحيل منه إلى الممكن أو المتصور. وليس في استطاعة أحد أن يدعي أن الأمر قد مر في يسر وسهولة. ذلك أن وضع الجماعة يومها كان في حاجة

إلى حنكة ومهارة وقدرة على المناورة مع شيء من الوعد والوعيد والترهيب والترغيب. فقد كان هناك من تبقوا من الحرس القديم ممن رافقوا الإمام منذ البداية والذين رأوا عن حق أو عن باطل- أنهم أهل لخلافته أو بالأحرى وراثته ووراثة الدعوة من بعده. وكان هناك قادة النظام الخاص أو رؤوسه والذين أطلوا برؤوسهم في خفاء حتى لا تفوتهم اللعبة فربما فازوا بها أو كان لهم فيها نصيب. وكان هناك جماعة الوسط كما أسميناهم وكانت لهم الغلبة في النهاية وفاز مرشحهم بالصيد السمين.

وكان من بين رواد عاطفة الثلاثاء قاض جليل عرف بين أقرانه بالصلاح والحزم والحسم الذي قد يصل إلى حد الصلابة والتعنت في بعض الأحيان وكان مدمنا للعاطفة لا يفوته ثلاثاء وكان يأتي في كل مرة وبصحبته كوكبة من المستشارين والقضاة على اختلاف رتبهم ودرجاتهم وكان يحرص في نهاية كل عاطفة على أن يقدم للإمام عددا منهم فيتبادلون معه الحديث ويدعو لهم الإمام بالبركة فإما أن تنتهي بهم البركة إلى الإنضمام إلى الجماعة أو تنتهي بهم إلى الإبتعاد عنها والاكتفاء بالغناء لها !! وكان هذا المستشار الجليل هو الذي اجتمعت عليه كلمة أهل الوسط لكي يكون هو الورقة التي يخوضون بها معركة اختيار المرشد الجديد.

وربما أكون قد تجاوزت عندما أسميتها بالمعركة. صحيح أنني لم أشهدها ولا عرفت كيف دارت وإنما علمت بها بعد عودة من بعثة علمية في الخارج. ولقد كتبت وأنا هناك أسأل زوج شقيقتي عن السر في إختيار هذا الرجل ليخلف حسن البنا رغم ما هناك من إختلاف بين بينهما ورغم أنه مع علمه ومكانته صلب الوجه والملامح على خلاف الإمام الشهيد ولم يعتد الخطابة ولا مواجهة الجماهير كما كان يفعل حسن البنا ولم يمارس لعبة السياسة والمحاورة مع التابعين والعاصين والراضين والمترددين كما كان يفعل حسن البنا عشرات المرات في اليوم الواحد. ذلك أن المرشد الجديد قد اعتاد أن يجلس على المنصة بحكم عمله فوق مستوى الناس فإذا أشار فإشارته أمر وإذا نطق فنطقه حكم لا مناقشة فيه ولا اعتراض عليه.

ويوم تساءلت عن السر في اختياره أجابني زوج شقيقتي بأنه كان أفضل المرشحين !! فهل كان يقصد أنه لم يكن هناك من يستحق المنصب غيره أو أنه كان المرشح الوحيد الأوحد أم أنه كان المرشح الذي أحسنت الدعاية له ومهد الطريق أمامه بما يشبه التزكية من هيئة تأسيسية ليس فيها من يستطيع أن ينافسه. ومع ذلك لم تنطل اللعبة لا على الحرس القديم ولا على قادة النظام الخاص وإنما بلعوها بمزاجهم كما يقول أولاد البلد وجلسوا

ينتظرون لعل الله أن يحدث بعد ذلك أمرا !!

ومع اقتراب هذا المشهد من نهايته كانت هناك خطوات تجري على المسرح تمهد الطريق أمام المشهد الجديد والذي تسلل من خلاله الأحرار إلى مواقع جماعة الإخوان المسلمين لتشهد الدعوة مرحلة جديدة من مراحل حياتها قبل أن تعصف بها أنواع الخلافات وعواصف الإنقسامات وصراعات الوسط مع اليمين واليسار على السواء.

"ستار"

المشهد الرابع

وتسلل الأحرار إلى مواقع الإخوان ...

وتسلل الأحرار إلى مواقع الإخوان ...

واهم مغرق في الوهم من يتصور أنه يعلم علم اليقين متى بدأت صلة الأحرار بالإخوان المسلمين. ولكني أزعم أن هذه الصلة التي أشبه ما تكون بالارتباط قد بدأت في وقت متقدم من نشأة تنظيم الضباط الأحرار أو بالأحرى مع بداية علم الناس به وتهامسهم حوله. ولقد أكد لي من أثق به وأثق في صدق كلامه أن صلة الأحرار بالإخوان قد بدأت منذ سنوات بعيدة. ورغم أنني قبلت هذا الكلام دون أن أقره أو أسلم به فإنني أعتقد أن هذا الصديق لم يكن يعني تنظيم الأحرار في صورته المتكاملة وإنما ربما كان يعني أفراده الذين ربما ارتبطوا بالجماعة بصورة أو أخرى أي أنهم قد عرفوا الجماعة فرادى وليس كتنظيم وربما كان ذلك هو الذي فتح الطريق أمام الأحرار عندما عقدوا العزم على التسلل إلى مواقع الجماعة كتنظيم يعرف طريقه كما يعرف هدفه ومراده. ولقد رحل إلى جوار ربه من كان في استطاعتهم أن يجيبوا على هذا السؤال سواء الأحرار منهم أو الإخوان لقد رحلوا ورحلت معهم الكثير من أسرارهم وما أقدموا عليه أو ما فعلوه وما فرحوا به أو ندموا عليه. ولم تبق لنا إلا الدلائل والشواهد ننظر

من خلالها ونغوص في أغوارها لعلنا نجد فيها ما تكتمل به شهادتنا أمام الله وأمام الناس.

عاد الأحرار بعد أن وثقت بينهم الأحداث والمحن وبدأت القلة تعرف عنهم ما لايعرفه سواد الناس وكان البعض من كبار المسئولين في الجيش والشرطة يعرفون أسماءهم وربما أدوارهم ولكنهم مع ذلك سكتوا عنهم إما طمعا فيهم إذا نجحوا وإما خشية منهم إذا اضطروا إلى المساس بهم وإما تعاطفا معهم ومع حركتهم وإما كرها فيمن كان على قمة الدولة يومها فيمن كانوا هدفا للأحرار كهدف أي حركة عسكرية وهو الإطاحة برأس الدولة ورموزها ثم التريث فترة حتى ينكشف ما حفظوه في باطنهم ولم يفصحوا عنه بداية أمام الناس. وليس أدل على ذلك من أن من كان على رأس جهاز البوليس السياسي كما كانوا يسمونه في ذلك الوقت كان على علم كامل بهم وبتنظيمهم بل والكثير من تحركاتهم. وطالما نبه رجال القصر والحكومة إلى ذلك ولكنه قوبل في كل مرة بالصد والإعراض ربما لأن من أبلغهم كانوا لا يصدقون ما نقله إليهم من أسماء إما لأنهم أهل ثقة وإما لأنهم كانوا على صلة ببعضهم. ولما أراد الرجل عقب حريق القاهرة أن يثبت صحة علمه تقدم إلى النيابة العامة بطلب الإذن بتفتيش

منازل البعض من قادة الأحرار وتسرب الخبر إلى واحد من قادة الإخوان كان على صلة خاصة بهم فأبلغهم وضاعت الفرصة على ضابط الشرطة الكبير على نحو ما سنراه في سياق هذا المشهد.

أقول أن الأحرار قد عادوا من الفالوجا وانضم إليهم من لم يكن قد سافر أول الأمر وأعادوا ترتيب صفوفهم تمهيدا للبدء في تنفيذ خطتهم. وكانت لهم يومها خطة ظاهرة أو بالأحرى خادعة هي إثارة معركة أو زوبعة في انتخابات نادي الجيش ولم يكن الهدف منها كما ظن بعض السذج- أن يصل الضباط الأحرار إلى مقاعد مجلس الإدارة وإنما كان ذلك من أجل التغطية على خطة أخرى ظلت خافية حتى بدأ تنفيذها في غير موعدها الذي رسم لها على نحو ما سنرى.

ومع دعوة الأحرار واكتمال عقدهم بدأ اتصالهم بالإخوان المسلمين. ويبدو أن هذا الاتصال الذي خطط له بعناية فائقة وفكر متميز كان على خلاف ما قام بين الأحرار والإخوان من إتصال أو تعارف من قبل. ففي هذه المرة تم الإتصال بين تنظيم الأحرار كهيئة والإخوان المسلمين كجماعة. صحيح أن الإتصال في ظاهرة قد أخذ صورة اتصال أفراد بأفراد ولكنه في الحقيقة كان إتصال تنظيم بتنظيم رسمت له الحدود ووزعت فيه الأدوار وتم

أداؤها بكفاءة فاقت ما توقعه الأحرار من نجاح في مهمة تسللهم إلى مواقع الإخوان المسلمين.

والحق أن خطة الأحرار لم تقتصر على الاتصال بجماعة الإخوان وحدها بل سبق ذلك مسح شامل لمختلف فصائل الناس في مصر المحروسة بالإضافة إلى عدد من الجهات الأجنبية التي رؤى أنه قد يكون من الأفضل تحييدها إذا لم يكن في استطاعتهم ضمان دعمها أو تأييدها. وكانت فصائل الشعب في ظن الأحرار قد تمثلت في القوات المسلحة والقصر ورجاله والأحزاب والتجمعات الشعبية واليساريين من شيوعيين وغير شيوعيين والطبقة الكادحة من عمال وفلاحين وجماعة الموظفين العموميين وأشباههم. فأما القوات المسلحة فيبدو أن الأحرار بقيادة زعيمهم وأشدهم ذكاء وأقواهم شخصية وأكثرهم فهما لأصول اللعبة قد سبروا أغوار القوات المسلحة ووضعوا أيديهم على مواقع الضعف والقوة فيها ووجدوا لهم في كل سلاح أنصارا أوعيونا أو راغبين في المشاركة بدافع الفضول أو الرغبة في خوض التجربة. لذلك فإنه لما بدأت حركة الجيش فإن هذه الفصيلة من فصائل الشعب كانت أول من أنضم إليها بعد أن أعتقلت رؤساء الأسلحة في غفلة منهم أو على غير إنتظار. أما ما قيل

يومها من أن اشتباكا قد وقع بين قوات الأحرار وحرس القصر في الإسكندرية فأغلب الظن أن هذا الحرس الملكي لم يكن ما يحمله من ولاء ولاء حقيقيا بقدر ما كان وظيفيا وأن قادته قد ظنوا في أول الأمر أنهم في مواجهة مع مجموعة صغيرة من الجنود المتمردين ولكن لما رأوا أن الأمر ليس كذلك توقفوا عن المقاومة وآثروا حقن دمائهم والإنضمام إلى من هاجموهم ربما قبل أن يدركوا ماذا كان يدور أمامهم أو من خلفهم.

وأما القصر وأعوانه فقد كانوا كأبطال الأساطير يرهبهم الناس وهم من الناس أشد رهبة أو كما قال الأقدمون كراكب الأسد يخافه الناس وهو على نفسه أخوف. وهؤلاء أدنى من أن يحسب لهم حساب فهم كالنبات المتسلق لا ينبغي أن تتعب نفسك في إقتلاعه بل اقتلع الشجرة وسوف يموت كل ما تعلق بها من نبات أو حشرات.

وأما الطبقة الكادحة من فلاحين وعمال فبالإضافة إلى أنهم لم تكن لهم روابط تحميهم أو تدافع عنهم أو تطالب بحقوقهم وإن وجدت فقد كانت إلى الصورة والشكل أقرب منها إلى الفعل أو القدرة عليه. لذلك رأى الأحرار فيما يبدو أن أمر هذه الفصيلة يمكن أن يرجأ إلى يوم ينجح الأحرار فيما أعتزموه من تحرك

فيومها ما أيسر أن تقطع رؤوس الإقطاع ملاكا كانوا أو رجال أعمال وأن توزع أراضيهم وأموالهم على الناس فينقلبوا من كادحين إلى مؤيدين وأنصار.

وأما فصيلة الموظفين ومن هم على شاكلتهم فهؤلاء أو بالأحرى أغلبهم هم ممن تمرغوا في الميري ولم يكتفوا بترابه وبذلك أصبحت الحكومة بالنسبة لهم رمزا وليست حقيقة ومن تولاها فهو ولي نعمتهم وصاحب الفضل عليهم يستوي في ذلك الأحزاب أو الأحرار أو الإخوان أو الشيطان ومن يتبعونه من أعوان. لذلك لم يعبأ بهم الأحرار في خططهم لأنهم في جميع الأحوال مستسلمون وللثورة مهما كانت أهدافها مؤيدون وهم إن بقوا في وظائفهم أو ضمنوا معاشهم في الحالين راضون. فالفصائل إذا كلها مؤمنة والأخطار كلها تحت السيطرة. ولم يبق إلا الأحزاب وما شابهها أو ارتبط بها من جماعات أو تجمعات.

أما الأحزاب فكانت أغلبها إن لم تكن كلها فيما عدا الوفد لا تعدوا أن تكون ديكورات ضرورية أو لازمة لاستكمال مشهد الحياة الديمقراطية كما ينبغي أن تكون. فلم يكن لها وجود لدى الناس إلا إذا تولت الحكم في غفلة من الزمن أو لمجرد التخلص من الوفد أو إبعاده حينا عن الوزارة. لذلك كان أمرا طبيعيا ألا

يقيم لها الأحرار وزنا أو يحسون لها بقيمة. وأما اليساريون من شيوعيين ومن ذهب مذهبهم فقد كان أغلبهم من النوع الذي نزعت أنيابه وبقي لسانه فهم يحسنون الكلام والجدال دون قدرة على الفعل أو الحركة. ومع ذلك فقد حرص الأحرار أو بالأحرى زعيمهم على أن يلقي بينهم بمن يثقون فيه ومن يثق فيهم ومن قد يعثر بين صفوفهم على من يمكن استمالته أو الإستعانة به عند الحاجة.

وقد نجح الأحرار في ذلك بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى وربما الثانية كذلك. وبقى بعد ذلك الإخوان أكثر التجمعات انتشارا بين الناس فهم من الناس والناس منهم وهم على ذلك يمكن أن يمثلوا خطرا أو مواجهة مع الأحرار إن هم تحركوا دون أن يحسبوا لهم ألف حساب. كان هذا ظن الأحرار في أول الأمر ولكن سير الأمور اختلف بعد ذلك على نحو ما سنرى.

وكان حزب الوفد قد تقلد أمور الحكم في البلاد بعد أنتخابات قيل أنها أول وربما آخر- انتخابات حرة تشهدها المحروسة في هذا الزمان. وكانت حكومة الوفد قد استهلت أمجادها بإلغاء معاهدة الشرف والاستقلال بعد أن غدت بقدرة قادر معاهدة للذل والإذلال.

وسمحت الحكومة دون إعلان لجماعات بأن تتوجه إلى منطقة

القنال تحت مسمى "الفدائيون" لكي تعكر على القوات البريطانية صفوها. وكانت ساحة الفداء في مدينة الإسماعيلية خاصة ومنطقة القنال على وجه العموم فرصة قدمت للإخوان والأحرار على طبق من ذهب مرصع باللؤلؤ فقد بدلت أعمال الفدائيين صورة الإخوان لدى الناس وساعدت الأحرار على مزيد من التوغل في صفوف الإخوان بعد أن قنعوا حينا بالتسلل إلى مواقعهم وهكذا أتيحت الفرصة للجماعتين لكي يتوافر السلاح في أيديهم باسم الكفاح ضد المستعمر الجاثم على صدورنا والمحتل الذي آن له أن يرحل وكان شعار الكفاح كفيلا بألا يتعرض لهم أحد.

وتوغل الأحرار بإشراف واحد منهم هو المرحوم كمال الدين حسين في صفوف الفدائيين الإخوان ووضعوا أعينهم على من تميز منهم في ميدان يحتاج إلى المهارة وإلى الشجاعة في آن واحد.

وتوغل الأحرار في صفوف العامة من الإخوان والذين هم إلى التدين أقرب منهم إلى الكفاح وذلك تحت إشراف حسين الشافعي الحر المتدين الذي طالما أم المصلين في صلاة الجمعة بالمسجد حتى سمي بحق إمام الثورة وخطيبها وأنور السادات داهية الحكم والسياسة والحرب والسلام وواحد ممن تركوا على تاريخ مصر بصمات ليس من السهل إنكارها ولا نسيانها أو حتى مجرد

إغفالها. وبقي بعد ذلك من فصائل الإخوان فصيلة القادة الذين هم قدامى الفاتحين الغزاة والذين أصبحوا الآن أصحاب الدعوة الموجهين لها والعارفين لأسرارها الممسكين بدفتها. هذه الفصيلة كانت في حاجة إلى فصيلة من الأحرار إن لم تكن مثلها لا بد أن تكون أذكى منها وأقدر منها على التفاوض والتحاور والكر والفر حسب تغير الظروف والأحوال. ولقد اختار الأحرار لهذه المهمة زعيمهم وقائدهم ومعه رئيس أركان حربه والأمين على سره ورفيق سلاحه وعمره حتى أذن الله أن يختار الرحيل راغبا أو مضطرا إلى الرفيق الأعلى حيث تصفى الحسابات كلها فلا يظلم أحد أحدا ولا ينفع أحد أحدا كذلك.

وتوثقت العلاقة بين زعيم الأحرار وأركان حربه من ناحية وقادة الإخوان من ناحية أخرى وعندما أقول قادة الإخوان فإنني أعني بهم على وجه الخصوص الستة الذين سبق وأن أشرت إليهم من قبل. ويبدو أنه لم يكن للمرشد الجديد فيما أعلم شأن بهذه العلاقة وربما لم يكن على علم بها وأنه إذا كان قد علم بها فما أظن أنه تحمس لها أو بارك لهم فيها. ومع ذلك فمبلغ علمي أن قادة الإخوان كانوا يتحدثون عن هذه العلاقة وسيرها كأنما هي سياسة للدعوة وكأنما المرشد هو الموجه لها الممسك بكل

خيوطها. وإزدادت الصلات بين قادة الأحرار وقادة الأخوان توثقا حتى عاش بعضهم مع الآخر أكثر مما يعيش مع أهله وأولاده. وصاروا يأكلون وينامون في بيوت بعضهم أكثر مما يأكلون أو ينامون في بيوتهم. وربما تجاوزوا ذلك كله فكانت لهم مساكن خاصة بعيدة عن مساكنهم يختلون فيها ببعضهم كأنهم أزواج هربوا من زوجات رسمية معلنة إلى زوجات عرفية مستترة. وقد روى لي صديق أنه كانت لهم في حي العمرانية بالجيزة شقة مفروشة كانوا يأوون إليها كلما تأزمت الأمور فيكتمون فيها أسرارهم وقد يخفون فيها أسلحتهم. كذلك روي لي أن زوجة واحد من المجتمعين قد شكت في أمر زوجها فأرسلت وراءه من يرقبه وأن الأمر كاد أن يتطور إلى فراق وطلاق لولا أن استجاب الآخرون إلى رجاء الزوج المراقب فأغلقوا المكان أو بدلوه بغيره.

وعلى الرغم مما أحاط به الأحرار والإخوان اجتماعاتهم وتحركاتهم بسرية مفرطة فإن الأسرار كالماء لا يلبث أن يتسلل ولو من خلال الحجر وكالهواء لا بد أن ينفذ ولو أغلقت الأبواب والنوافذ وأحكم غلقها. كذلك كانت تحركات الأحرار والإخوان فقد تسرب منها ما تسرب وعلمت أو شاهدت منها ما علمت أو

شاهدت وليس ما سأحكيه عن هذه العلاقة تأريخا لهذه الفترة فهذه ليست صناعتي ولا هو نوع من محاولة الكشف عن أسرارها فأنا لست بعليم ولا خبير ولكنها مشاهد تدل على مبلغ ما وصل إليه الطرفان من مودة ومحبة ظاهرة كانت في حقيقتها وباطنها تربصا من كل طرف بالآخر أو كانت عناقا بين عدوين تظاهرا بالصداقة وأمسك كل منهما بخنجر في يده فلا يراه الآخر لأنه من وراء ظهره. ولقد كشفت الأحداث بعد ذلك عن صدق ما صورت به هذه العلاقة وذلك عندما وقع الصدام الكبير وأخرج الأحرار للإخوان قائمة لا نهاية لها من الاتهامات والمؤامرات والتي كان أقلها الخيانة العظمى والعمل على قلب نظام الحكم ليبرروا بها ضربتهم التي أصابت الجماعة في مقتل وإن أسفرت في النهاية عن مولد جماعات أخرى ربما كانت أعنف من الإخوان بكثير وأشد منها خطرا على الناس وعلى الدولة سواء بسواء.

لقد بدأ الاحتفال بالزواج الذي ربط الإخوان بالأحرار على غير حب ولا غرام بعدد من الليالي والأيام التي رتبت فيها الأمور من أجل إحداث نوع من البلبلة التي قد تهز أركان النظام الحاكم من ناحية وقد تمهد السبيل أمام الزوجين السعيدين من أجل الاحتفال بقلب نظام الحكم أو تغييره. وسوف نرى كيف تم الاحتفال بهذا

الزواج على نحو لم تشهده القاهرة من قبل وإن كانت روما على عهد نيرون قد شهدت احتفالا مماثلا منذ عدد لا بأس به من القرون وذلك على نحو ما سنرى عند الكلام على حريق القاهرة.

لذلك فإنه خلال العام الأول من الزواج المعلن بين الأحرار والإخوان تمت على نحو ما أعلم وأذكر عمليتين من عمليات الشروع في الإغتيال إحداها عسكرية والأخرى مدنية: الأولى استهدفت إغتيال اللواء حسين سري عامر أحد قادة الجيش المقربين إلى القصر والمعادين للضباط الأحرار وكانت الحجة في قرار اغتياله أنه خطر على التنظيم وأنه ربما كان من الضالعين في مؤامرة انتخابات نادي الضباط وأنه ضالع في قضية الأسلحة الفاسدة وإن لم ينله اتهام في ذلك ولا صدر عليه حكم. إلا أن القرار فيما يبدو كانت أسبابه عند من قام بتنفيذه. وقد أحسن الإعداد لهذا الحادث وتولاه قمة من المخططين ولكنهم خابوا في تحقيق المراد لأن إرادة الله كانت غالبة. وكانت المراقبة قد كشفت عن أن اللواء سري عامر منضبط في حياته غاية الإنضباط تكاد تضبط ساعتك على موعد عودته في الثانية من بعد ظهر كل يوم فيه عمل ومتى وقفت السيارة اندفع الحارس إلى بابها ففتحه وأنطلق اللواء كالسهم يخرج منها ويدخل إلى منزله. وترصد

المكلفون بالرجل ووصل الركب في موعده وأندفع الحارس إلى باب السيارة ففتحه ولكن اللواء لم يخرج من السيارة كالسهم كما توقع المخططون فلأنه رجل عسكري منضبط فقد لاحظ أن رباط حذائه ليس منضبطا مثله ولما أنحنى ليصلحه كانت قذائف الرصاص قد إنهالت على السيارة وبابها المفتوح فأنبطح اللواء على الأرض ولقي الحارس مصرعه وهو واقف يرفع يده بالتحية ولاذ الجناة بالهرب من قبل أن يعلموا أن اللواء قد نجا وأن عملهم الذي ظنوه صالحا قد خاب لأنه لم يلق من الله قبولا ولا استجابة.

وأما الثانية فاستهدفت رمزا عزيزا من رموز شعب مصر وأطيب زعيم تولى أمرها وأخلص لها وما ذكر اسمه أمام أحد من أعوانه أو حتى خصومه إلا ترحم عليه ذلك هو مصطفى النحاس القاضي العادل وخليفة سعد وأكثر رؤساء حكومة مصر تعرضا للإقالة فرضه الشعب على الملك أكثر من مرة وفرضته ظروف الحرب مرة واحدة ولأن الوسيط في ذلك كان هو مندوب بريطانيا فقد تركت هذه الهفوة أثرا كان ومازال عالقا بتاريخ الوفد ومعكرا لصفو نقائه. ذلك أن مصطفى النحاس قد صحا ذات ليلة على صوت انطلق بجوار بيته وتعلقت شظية أعلى سريره ولم يصب الزعيم بأدنى أذى وأنصرف الجناة خشية أن يفتضح أمرهم.

وهرب الجناة للمرة الثانية وظلوا في مأمن من أي ضبط أو مطاردة.

وربما وقعت قبل هاتين الحادثتين أو بعدهما أمور أو جدت في العلاقة بين الزوجين غير المتحابين أمور وأمور ولكنني لا أستطيع أن أدعي علما بما لم أشهده ولا سمعت عنه ولكن ما أذكره تماما ولا أستطيع أن أنساه هو اليوم الأكبر. يومها كان قد أهل على البلاد بشير خير وشؤم على السواء فقد مر عام على مولد ولي عهد الفاروق الذي سيرث عرشه ويكون صاحب الملك من بعده. كان ذلك يوم السادس والعشرين من شهر يناير عام ١٩٥٢ ففي هذا اليوم أضاءت سماء القاهرة بألسنة النيران بدلا من شموع الفرح بمولد الأمير الوليد. وأحتشد الناس في الميادين والطرقات هلعا وخوفا لا غبطة وفرحا. ففي صباح هذا اليوم المشئوم كنت كعادتي للمرة الثالثة أجلس في مكتبي بنيابة شمال القاهرة منذ الصباح الباكر وكنت أول من تلقى إبلاغ الشرطة للنيابة بأن حريقا كبيرا قد شب في ملهى أو كازينو أوبرا كما كانوا يسمونه في هذا الوقت. وقبل أن أبدأ في اتخاذ اجراءات الإبلاغ عن الحادث كانت البلاغات تتساقط على رأس النيابة العامة ثم غدت كالسيول لا يستطيع أحد لها دفعا ولاردا. وسخر وكلاء

النيابة كلهم للتحقيق وأنطلقوا وراء الحريق في كل مكان وعدد من رجال الشرطة من خلفهم يهرولون ويصيحون فلا يكاد يسمعهم أحد أو يلتفت إليهم إنسان فقد أصاب القوم نوع من الجنون فهم لا يدرون ماذا هم فاعلون وأخرجت بعض الأحياء المشبوهة من أحشائها ما ضمته من لصوص وأشرار. فمن حي شركس خرج الناس كأنهم جراد منتشر ومن عرب المحمدي خرج النشالون وقطاع الطرق وسادت الفوضى أنحاء القاهرة وبدأ رجال الإطفاء وكأنهم يحاولون بخراطيمهم المثقوبة أن يطفئوا نار جهنم والعياذ بالله. يومها نهبت القاهرة ونزلت كتيبة من كتائب الجيش فأعادت الأمن والنظام على قدر ما تمكنت واستطاعت إلى قاهرة المعز المقهورة. وأقبل الليل وأنا وجمع من الزملاء نحاول أن نتم شيئا يمكن أن يطلق عليه اسم التحقيقات. وفوجئنا ونحن في قسم الأزبكية نحتمي من النار والغوغاء بأن الأحكام العرفية قد أعلنت ومنع التجوال في الطرقات وأقيلت وزارة مصطفى النحاس كما هي العادة دائما وحملتنا سيارة عسكرية إلى بيوتنا بعد أن أغلقنا محاضر للتحقيقات كانت أقرب إلى الهزل منها إلى الجد.

وفي الصباح قيل لنا أن جماعة من مصر الفتاة وكانت قد غدت حزبا إشتراكيا أو نحو ذلك له مجلة تنطق باسمه هي التي كانت

وراء حريق القاهرة. وكان لواء هذه الجماعة قد انعقد للمرحوم أحمد حسين ونائبه إبراهيم شكري أطال الله في عمره. وكانت هذه الجريدة قد دأبت على مهاجمة القصر في سلسلة من التحقيقات واختارت لها على ما أذكر عنوانا ملتهبا هو"هؤلاء هم رعاياك يا مولاي." ووجدتها الحكومة الجديدة بإيحاء من القصر فرصة رائعة للقضاء على هذه الفئة المشاغبة وألقاء تهمة الحريق على رموزها وقادتها. وقبضت الشرطة على أحمد حسين وشريكه في الكفاح المهندس إبراهيم شكري وقدمتهما إلى النيابة وقالت: هؤلاء هم الذين أحرقوا القاهرة !!! ووجدوا بين أعضاء النيابة يومها من فتح المحضر وبدأ التحقيق. ودعيت أنا ومجموعة من المحققين لكي نقوم بعملية عرض المتهمين الأبرياء على شهود جلبتهم لنا الشرطة ورفضنا أو بالأحرى رفضت ضمائرنا أن نقدم على هذا العمل وكانت حجتنا أن الجرائد قد نشرت صباح ذلك اليوم صورة مكبرة لمن سنعرضهما سرا على شهود زور جيء بهم لكي يتعرفوا عليهما بعد أن حفظوا صورهم منذ الصباح. ويومها طلب إلينا أن نعود إلى عملنا في الدور الثالث بعد أن نعمنا بالترقي لمدة ساعات قضيناها في رحاب النائب العام في الدور الثاني من مبنى المحاكم بميدان باب الخلق. ولم يجدوا بعد ذلك صعوبة في أن تجري عملية العرض على النحو الذي أرادوه وتعرف شهود

الشيطان على أحمد حسين وإبراهيم شكري وأودع المظلومان السجن وظلا به حتى نجحت حركة الأحرار فكان من أوائل ما فعلوه إخلاء سبيلهما. ترى هل كان هذا الإفراج لأنهم ظنوا أنهم أبرياء أم أنهم كانوا يعلمون يقينا من الذي أحرق القاهرة ولماذا تم هذا الحريق. الله أعلم للمرة الثالثة بل والرابعة وربما لآخر ما تضمنته هذه الحكاية من مشاهد وأحداث!!!

وبقي الناس ربما إلى يومنا هذا يتساءلون ويتهامسون فيما بينهم من الذي أحرق القاهرة وكنت مع المتهامسين ولم أكن من المتسائلين لأنني ربما أعلم أو أدعي العلم بمن حرق القاهرة !! لقد دار بين الناس كلام كثير فقال قائل حرقها الملك وأعوانه ورد آخرون وقالوا ولماذا يحرق عاصمة ملكه !! وقيل بل حرقها الإخوان المسلمون وقيل بل وعاونهم آخرون وقيل ما حرقوها ولكنها كانت إشارة لأمر دبر من قبل ولكن الإشارة لم تفهم وتكفلت الغوغاء بالنفخ في النار حتى طغت وأتت على كل شيء. وأكتفي بذلك القدر من الشهادة وأمنع نفسي من الكلام كما منعتها من قبل عندما استضافتني سيدة فاضلة في برنامج على الهواء يوم كان الهواء قابلا للإذاعة عليه دون إعداد سابق ودار الحديث خلال اللقاء حول أهم قضية شاركت في تحقيقها وقلت حريق القاهرة وسألتني السيدة الفاضلة وهل انتهى التحقيق إلى معرفة

من فعلها يومها آثرت الصمت وأمسكت مكبر الصوت بقبضة يدي وسألتها في همس هل تصرين على هذا السؤال وبذكائها الذي عرف عنها قالت"لا بطبيعة الحال". وراح من راح ورحل من رحل وبقيت أوراق قضية حريق القاهرة في موقعها من مدافن القضايا بالنيابة العامة تنعي من حققها ومن دفن معها حقيقة ما تم في هذا اليوم الأغبر السادس والعشرين من شهر يناير عام ١٩٥٢.

وتوالت على مصر وزارات ما أنزل الله بها من سلطان. وكلما تولى رئيس سقط ليشغل غيره مكانه وبدا تغيير الوزارات كأنه سكرات الموت تداعب نظام الحكم بأكمله من قمته إلى أسفل قامته. ولم ييأس البوليس السياسي من ملاحقة الأحرار وكاد أن يكشف أمرهم بل ربما كشفه فعلا. ولكن الأحرار كانوا أسرع حركة وأشد ذكاء وأكثر استعدادا فقاموا بحركتهم وأودعوا الحكام السابقين كلهم في السجون حتى تتم محاسبتهم على ما فعلوه من خير أو شر على السواء. أما رأس الأفعى فشيعوها إلى المنفى حيث مات ولكنه دفن في مصر.

ستار

المشهد الخامس

ووقع الخصام بعد الوئام ...

ووقع الخصام بعد الوئام

نجح الأحرار فيما أقدموا عليه وتحقق لهم النجاح دون مقاومة تذكر إلا بضع طلقات أطلقها حراس الملك السابق ثم ما لبثوا أن استسلموا لا عن هزيمة ولا عن قناعة ولكن لأن الأمر في اعتقادهم مهما كان لا يستحق أن يفقد أحد منهم روحه أو حتى أن يصاب في معركة لا ناقة له فيها ولا جمل. ولقد كان الأساس يومها في إختيار ضباط حرس الملك وجنوده الوسامة وسلامة الأصل وربما شيء من الجاه والمال بعد ذلك. لهذا لم يكن مثل هؤلاء ضباطا ولا جنودا بالمعنى الذي يتصوره الناس فهؤلاء قد خلقوا وجيء بهم من أجل أن تكتمل بهم الأبهة لا من أجل خوض معركة أو تضحية حتى ولو كان من أجل ملك أو عرش يجلس عليه.

مضى ليل الثالث والعشرين من شهر يوليو ١٩٥٢ على غير ما توقعه الأحرار أول الأمر وتبين أن ما ظنوه من مقاومة أمر لا خوف منه بل ربما لا وجود له. وأكتشفوا أن ما اتخذوه من حيطة خشية أن تتعرض حركتهم لفشل أو يحيط بحياتهم من خطر أمور لم تكن لها ضرورة. لذلك سرعان ما ظهر من الأحرار من تخفى أول الأمر وعادت عائلاتهم إلى بيوتها بعد أن نقلوا بعيدا عنها

تحسبا لقبض أو إعتقال. وقيل يومها أنه بعد إعلان نجاح الحركة خرجت جموع الناس عن بكرة أبيهم يؤيدون الحركة ويحتفلون بمن حملوا لواءها وحملوا أكفانهم فوق أيديهم من أجل أن يخلصوا البلاد من ذلك الطاغية العابث وعصابته الباغية اللاهية !!! ولكن الناس لم يلبثوا أن انفضوا إلى أعمالهم ومعاشهم فقد تنازل الملك الطاغية في مذلة واضحة عن ملك آبائه وأجداده إلى ابنه الرضيع في يسر بالغ ولم يطلب أكثر من أن يكون نفيه لائقا بماضيه يوم كان قائدا أعلى للقوات المسلحة يرتدي في كل يوم بدلة عسكرية تليق بالمناسبة يؤكد بها أنه قائد أعلى لكل سلاح. ووقفت القوات المسلحة يومها تودعه في رحلة إلى المنفى بنفس الطقوس التي كانت تودعه بها كلما راح في رحلة صيد أو ترفيه. وحملته المحروسة قبل أن تتحول إلى الحرية إلى منفاه محملا بكل ما تشبث به من متاع زائل بعد أن تخلى عن ملك كان لا بد له أن يضيع.

وبدا ذكاء الأحرار واضحا منذ البداية. فهاهم يأتون بمن كان الملك السابق يستعين به لضرب من يختارهم الشعب ممثلين لهم ونوابا عنهم في مجلس التشريع. لقد جاء الأحرار بعلي ماهر ليرأس أول وزارة تؤلف بعد الثورة وجاءوا معه بكوكبة من

المدنيين وزراء وأعوان حتى ظن الناس أن الأحرار عائدون لا محال إلى ثكناتهم ولكنهم لم يفطنوا إلى من قاد الأحرار سنوات ولم يعرفه الناس إلا منذ أيام كان أذكى من أن يكشف كل أوراقه حتى يفرغ من تأمين حركته وإعداد نفسه وجماعته من أجل مواجهة المستقبل وتحدياته وإدارة دولة بأكملها لا مجرد المشاركة في مجلس إدارة أحد الأندية كما تصور السذج من الناس في أول الأمر. ولقد وقع الإخوان قادتهم وأفرادهم فيما وقع فيه أغلب الناس فظنوا أن لهم في الثورة نصيب وأنهم إن تريثوا اليوم في طلبه فإنهم لن يتخلوا عنه غدا بأي حال من الأحوال. وأدرك قائد الثورة منذ البداية ما يدور في خلد الإخوان وما ظنوه دعما منهم للثورة ينبغي أن تدفع لهم فاتورته مضافا إليها ما يفرضونه من رسوم وأتعاب. من أجل ذلك سايرهم القائد في أول الأمر وبالغ أحيانا في المسايرة على نحو ما سنرى حتى تأكد لديهم ولدى الناس أن الأحرار والإخوان وجهان لعملة واحدة. وكان هذا الظن هو ما هدف إليه الأحرار حتى يفرغوا من إزالة كل عقبة أخرى ربما تعترض طريق الثورة في بداية حكمها للبلاد. يؤكد ما تقدم أن الثورة عندما قبضت على رؤوس الأحزاب وقررت حلها وأمرتها بتطهير صفوفها استثنت من ذلك جماعة الإخوان

المسلمين لا عن اقتناع بأن الاستثناء وارد بالنسبة لها كما تصور الإخوان أول الأمر ولكن لأن الأحرار قد رأوا أن معالجة الإخوان تحتاج إلى أسلوب آخر فهم يعرفونهم أكثر مما يعرفون الأحزاب وبعض الإخوان يعرفون الأحرار أكثر من معرفة الناس وبعض الضباط بهم. وعندما قرر الأحرار اتخاذ خطوة من الخطوات التي وعدوا بها وهي إصدار دستور جديد فقد اختاروا عددا من الإخوان أو من محبيهم ليكونوا أعضاء في الهيئة التي عهد إليها بإعداد الدستور الجديد. ومنها وهذا هو الأهم أن الثوار وقائدهم قد حرصوا على أن تبقى الصلة بينهم وبين عدد من قادة الإخوان وكانت هذه هي الصلة الظاهرة كذلك حرصوا على أن تتوثق الصلة بينهم وبين قادة النظام الخاص ورؤوسه وكانت هذه هي الصلة المستترة والتي ربما لم تنتبه لها جماعة الوسط ولا جماعة الحرس القديم في دعوة الإخوان المسلمين.

كانت هذه المظاهر والصلات محسوبة لدى الأحرار ولكنها لم تكن كذلك بالنسبة لجماعة الإخوان. فعندما أراد الأحرار بعد نجاح الثورة أن يقيموا روابط وصلات مع السفارة الأمريكية فقد بعثوا إليها بواحد منهم يثقون فيه ويثق فيه الأحرار. ولكن عندما أرادوا أن يقيموا اتصالا بالبريطانيين وسفارتهم بالقاهرة فقد كلفوا

بذلك عددا من قادة الإخوان الذين فرحوا بهذه المهمة الدبلوماسية وظنوها إقرارا من الثورة بأنهم ليسوا شركاء في أمور الداخل فحسب ولكن في أمور الخارج كذلك. كان عبد الناصر يعلم أن كراهية الإنجليز للإخوان كراهية متمكنة لا سبيل إلى العدول عنها.

ويبدو أنه من أجل ذلك جعل العدويين اللدودين يلتقي بعضهم ببعض من أجل قضية يتعين أن تحلها الثورة وحدها وليس الإخوان وحدهم بطبيعة الأحوال. ولقد استخدمت هذه المهمة بعد ذلك في إدانة الإخوان ووصموا بأنهم يجرون اتصالاتهم من وراء ظهر الحكومة وضد مصالح الدولة.

وقد خان الإخوان ذكاؤهم في كثير من المواقف بعد ذلك. وبدأ الأحرار كممثلين للثورة يضيقون ذرعا بهم وبتصرفاتهم أحيانا وبمواقف المرشد وتصريحاته أحيانا أخرى. ولقد كان أول اختبار قام به الأحرار لمعرفة مدى إخلاص الإخوان للثورة هو ما طلبوه صراحة من مجموعة الوسط من ضرورة أن يتم الإفصاح عن تأييد الإخوان للثورة صراحة وما تعتزم الإقدام عليه مستقبلا من خطوات وأن يتم ذلك جهرا وعلنا في منتدياتهم وفي المساجد التي يسيطرون عليها وفي الصحف على السواء. ويومها عاد أهل الوسط من الجماعة إلى مرشدهم الجديد لا ليسألوه الرأي

والمشورة ولكن ليحملوه على توقيع بيان أعدوه لهذا الغرض ومنشور كتبوه ليوزع على مواقع الإخوان وتجمعاتهم في كل مكان. وربما كانت هذه هي المرة الأولى التي يصطدم فيها الأتباع بمن أختاروه رغم أنف الجميع مرشدا عاما للجماعة ورئيسا لمكتب إرشادها. وربما كانت أول مرة يعرفون فيها عن قرب ووضوح شخصية هذا الرجل الذي لا يستطيع أن يحكم إلا بما تتكون به قناعته ويرضاه ضميره ويقره القانون في نصوصه وأحكامه فقد نشأ منذ بداية حياته العملية في قاعات المحاكم وأنهاها على منصة القضاء في أعلى درجاته وتشربت دماؤه ما كان يعتقده هو الأسلم والأصح من الأمور. ولم تكن المواجهة ولا الثورة ولا قيامها من الأمور التي تستقيم مع تفكير الرجل وما تربى عليه. ورفض الهضيبي ما أرادت جماعة الوسط أن تمليه عليه وقال للثوار طريق ولنا طريق آخر. ولم يفهم أحد يومها ماذا كان يعني المرشد بالضبط إلا أنه غير راض عما يجري من حوله وربما أمام عينيه. فهل كان يعني أنه لا ينبغي للجماعة أن تسير في ركب الأحرار وأن تكون طوعا لهم وإنما يتعين أن يكون لهم موقفهم الخاص بهم يؤيدون عن قناعة ويعارضون عن اقتناع. أم أن المرشد لم يكن راضيا أصلا عما قام من تحالف بين

ممثلي الجماعة وممثلي الأحرار. سواء قبل الثورة بسنوات أو بعدها بأشهر قليلة. ولقد علم بذلك قائد الثورة والمقربون منه فأسروها في أنفسهم ولم يبدها لهم وعقدوا العزم يومها على أمر لم يعلنوه ولكنه مع ذلك بدا واضحا من إعراضهم وبرود علاقتهم مع من كانوا أعز أحباب الأمس الذي لم يغب بعد عن ذاكرة أحد.

وكان الأحرار عندما اقتربت جماعتهم من التحرك من أجل الثورة قد اشعروا المسئولين والناس أنهم مجرد طلاب مناصب في مجلس إدارة نادي الجيش وأنه قد آن للشباب من الضباط أن يجلسوا جنبا إلى جنب مع الكبار من قادتهم ورؤسائهم فيأخذون منهم الحكمة ويمدونهم بحيوية الشباب وطموحه. وكانوا قد اختاروا للقيام بهذا الدور ضابطا عظيما بلغتهم أو لواء كبيرا كما يقولون. وكان هذا اللواء أو النجم الذي وقع إختيار المخرج عليه معروفا بين الضباط بالطيبة والصلاح والسماحة وحسن القبول. ولما أنهى الرجل المهمة وقام بالدور المطلوب منه على أحسن وجه كان مفروضا أن يغادر خشبة المسرح بعد أن لم يعد لوجوده ضرورة ولا مقتضى. ولكن من قاد الأحرار كانت له وجهة نظر أخرى: فظل في موضعه في المركز الثاني لا يتزحزح عنه وأبقى اللواء العظيم لأجل مسمى رمزا للثورة ورائدا لها

دون أن تكون له أدنى قدرة على اتخاذ قرار ودون أن يشعر كذلك بأنه يؤدي مهمة موقوتة. ويبدو أن الرجل الطيب لم يفطن لذلك بل راح يتنقل بين الناس ويرد تحيتهم ويحي هتافهم في كل مكان بل راح يخطب في أي مناسبة والأدهى من ذلك كله أنه بدافع تدينه قد استجاب لرغبة الإخوان في الاقتراب منه والجلوس إليه وربما التحدث معه كذلك في أمور لم تدخل أصلا في نص الحوار الذي أعد له ليلتزم به ويقف عند حدوده. فكان ما كان من إنهاء مهمته دون شكر ولا تقدير وحكم عليه بالضيافة الجبرية وكاد أن يفقد فيها بصره ولكن الله كان أحب من الناس وأحن منهم عليه فأفرج عنه من الدنيا ونقله إلى جواره وأحسن وفادته وهو الكريم الذي لا كريم غيره.

ومضت الحكاية وجاء الدور لكي تطفو على السطح بوادر أزمة وخلاف بين الثورة والإخوان الذين رأوا أن الثورة لا تريد أن توزع الغنائم بينها وبينهم بالعدل كل بحسب ما قدم وضحى وخشوا ألا يكون لهم فيها نصيب. ونسوا أن الغنيمة كانت في الحقيقة مسئولية ضخمة وأخطارا هددت الثورة منذ البداية وظلت تهددها حتى تمكن الأحرار منها وجعلوها تحت السيطرة بلغة أهل الضبط والربط في هذا الزمان.

ذلك أنه ما أن أنهيت مهمة على ماهر وقد كانت مؤقتة منذ البداية إذ كان ماهر في ذلك كضيوف الحلقات في المسلسلات بقدر ما يعظم قدره وهو نجم يصغر دوره وهو ضيف وجيء باللواء الرائد رئيسا للوزارة وقيل أن عددا من الأحرار يتأهب لشغل مناصب في الوزارة. وقتها أفصح الإخوان أو جماعة الوسط على نحو الخصوص عن أول مطالبهم. ويبدو أن الإخوان لم يقنعوا بما قدمته لهم الثورة من مقابل أو بالأحرى وعود- نظير ما قدموه للأحرار من خدمات خلال سنوات قضوها في خدمتهم قبل القيام بثورتهم. وكان الإخوان يعتقدون أنهم رفاق كفاح وأنهم شركاء فيما مضى وفيما سيأتي فهم قد شاركوا بالدم والمال فيما تم خلال سنوات الوءام وهم كما تصوروا قد ساندوا الحركة وحموا ظهرها من طعنات قد تأتيها من خائن أو مرتد وهم وهم وهم . . . !! ولكن كان للأحرار رأي مخالف لذلك تماما فقد كان الإخوان في نظر الأحرار جمعية خيرية ساكنة حتى دخلوها أو تسللوا إليها فجعلوها كتلة حية أو بؤرة ملتهبة فهم أصحاب فضل على الدعوة ولا فضل لأصحاب الدعوة عليهم ومضى الإخوان وخاصة أهل الوسط في تصورهم وكان تشكيل الوزارة الجديدة فرصة سانحة كي يتقدم الإخوان بمطالبهم وناب عنهم أو أدعى

النيابة عنهم يومها أهل الوسط فطالبوا بأن يكون لهم في مقاعد الوزارة نصيب واختار الإخوان العدل والدولة والداخلية وكذلك أعربوا عن مرشيحهم وزادوا فذكروهم بالاسم وحددوا لكل واحد من الثلاثة وزارته وكان الثلاثة من قدامى الغزاة الفاتحين بطبيعة الحال ممن أصبحوا أصحاب الدعوة والمتحكمين فيها . وأما زعيم الأحرار ومحرك الثورة بغير منازع فلم يخنه ذكاؤه بل وعدهم بأن يعرض الأمر على زملائه بالمجلس فليس هو وحده صاحب الرأي فيه مع أنه كان كذلك بالفعل. واستمع الإخوان إلى وعد الزعيم وقبلوه من وراء قلوبهم دون أن يطمئنوا إليه إلا كما يطمئن الظمآن إلى سراب يخدعه. وشكلت الوزارة وليس فيها يومها منهم أحد ولا من محبيهم ولا جماعتهم بطبيعة الأحوال.

وإزدادت العلاقة بين الأحرار الثائرين والإخوان الغاضبين توترا وغيظا وبدا وكأن الوئام الذي كان أوشك أن ينقلب إلى خصام وربما إلى صدام على نحو ما سنرى. فقد جاءت الغضبة الثانية عندما أعتزمت حكومة الثورة أن تصدر قانونا للإصلاح الزراعي. وكان القانون لا يستهدف إصلاح الزراعة كما يوحي بذلك اسمه بقدر ما كان يستهدف القضاء على ملاك الزراعة أو رؤوس الإقطاع كما تسابق الكتاب على وصفهم يومها وزعموا أن

هؤلاء الإقطاعيين قد استعبدوا الفلاح وقهروه وسلبوه حقوقه وجوعوه وكان لابد للثورة من أن تعيد إليه كرامته بل وإنسانيته وما سلبوه منه من حقوق !! وكان الأساس في القانون الجديد أن يحدد نصاب الملكية في الأرض الزراعية فلا يزيد عن عدد من الفدادين به يصلح حال الملاك حتى بعد أن انسخط إلى خمسين وأما ما زاد عن ذلك فيصلح به حال الحكومة والفلاح على نحو ما ستراه الحكومة خيرا للجميع. وكان بعض الإخوان في تحمسهم للقانون دون تحمس الأحرار بكثير. ولكن المرشد كان واضحا يومها في إعلان موقفه وبيان رأيه فأعلن المعارضة مؤكدا أن الوقت لم يحن بعد لمثل هذه الخطوة وأن الأمر وإن بدا خيرا فقد ينتهي بمستقبل الزراعة إلى شر كبير !! وكانت فرصة للأحرار الثوار فرددوا بين الناس أن الإخوان المسلمين يعارضون ما تعتزمه الثورة من تحسين أحوال الفلاحين !! مع إن الإخوان أو أغلبهم كانوا يومها في عداد الفقراء والمساكين أو الفلاحين المقهورين.

وجرى بين الأحرار والإخوان ما يجري في أغلب الأحيان بين الأزواج والزوجات حتى ولو كان الزواج عن عشق وغرام. ذلك أن تصاريف الحياة قادرة أكثر من غيرها على أن تغير قلوب

الناس وسبحانه وحده مقلب القلوب وإن شاء فلا راد لمشيئته.

وكان الطلاق يومها عند الله وعند الناس هو أبغض الحلال ولم يكن هناك خلع ولا متعة ولا فداء فكان لا بد للزوجين الأحرار والإخوان أن يقنع كل منهما بنصيبه في الحياة لعل الله أن يصلح النفوس وأن يزيل ما علق بها من خلاف. ولكن أحدا من الزوجين لم يقنع بما هو فيه وراح كل منهما يتربص بالآخر حتى زال ما كان بينهما من وئام حتى الذكريات الحلوة كان الغضب والغل أقوى منها فمحاها ولم يعد لها في الذاكرة مكان. واقتربت الساعة واقترب معها الصدام بعد الوئام. وكاد الستار أن يسدل على هذا المشهد والقلوب كلها تحمل غير ما تنطق به الألسنة أو تظهره الوجوه. وتربص الجمعان ببعضهما كل يريد أن ينال من الآخر لو أستطاع أو أن يتدخل القدر بينهما ليضع حدا لما قام من نزاع. والقدر عندما يتدخل لا يخضع عادة لما يضعه الناس لحل منازعاتهم من معايير وحسابات.

وتعود نفسي فتلح علي بالسؤال من من الصديقين المتنازعين كان على صواب وأي منهما كان على حق فيما أدعاه. وهل كان للإخوان حقيقة دور في قيام الثورة أو حتى مجرد الإعداد لها أم أن الأمر كان بين عدد من الأحرار وعدد ممن نصبوا أنفسهم قادة

للإخوان. وهل كان مجلس الأحرار وهيئات الجماعة على علم بما كان يجري بين الأحرار وبعض من قادة الإخوان. وهل لو علمت هذه الهيئات بما حدث وبما كان هل كانت ستقره أو ترضى عنه أو تسكت عليه. وهل كان الأحرار في حاجة إلى دعم من أحد ومن الإخوان على وجه الخصوص. وهل كان الإخوان يومها في وضع من التماسك والقوة بحيث يستطيعون الإعداد للثورة أو حتى مجرد مساندتها. وهل كان الأحرار وهم ضباط عسكريون صقلتهم المحنة وعلمتهم في حاجة إلى دعم أو مساندة من جماعة دب الخلاف بين فصائلها وضرب التناقض والتنافر أطنابه بين أعضائها حتى تفرقوا وكادوا أن تذهب ريحهم.

يبدو في ظني أن الأحرار كانت لديهم إجابات على كل سؤال وتساؤل وكانوا في أول الأمر صفا واحدا يصعب إختراقه وإن الإخوان يومها لم يكونوا على قلب رجل واحد وإنما كانوا على قلوب متعددة فاليمين معرض أو لا يبالي واليسار كامن لا يفصح عن مراده والوسط يتحرك وحده ظنا منه أن الجماعة كلها من ورائه.

"ستار"

المشهد السادس

الهروب الكبير والصدام الأكبر ...

باتت العلاقة بين قادة الثوار والإخوان متوترة غاية التوتر وكأنها على صفيح ساخن كما يقولون وصار الواحد من الضباط الثوار إذا لقى واحدا من جماعة الإخوان أعرض عنه كأن لم يكن بين الجمعين أمور وأسرار ثم ربما تنبه بعد أن أدعى الغفلة فحياه وسأله عن أحوال جماعته كأنما هو غافل عنها وأعتذر بكثرة مشاغل الثوار التي حالت بينه وبين لقاء الأحباب كما كان يحدث من قبل.

وكانت الأحداث التي مرت وما صار بين الطرفين من إعراض قد جعل الخصام أشبه ما يكون بالعداوة والبغضاء. وقلت اللقاءات بين الثوار والإخوان حتى كادت أن تنعدم وتعلل قادة الثوار بهموم الحكم وأعبائه بعد أن أصبحوا كلهم وزراء. وصار اللقاء بين الطرفين إن حدث بموعد ولدقائق بعد أن كان بغير موعد ولساعات. وتبدل الحال فأنصرف الثوار إلى مسئولياتهم أو إلى متع الحياة وأنصرف الإخوان وخاصة القادة منهم إلى التفكير في أمر دعوتهم التي خمدت جذوتها وجماعتهم التي تفرق شملها فقد كان التمايز بين اليمين والوسط واليسار قد بلغ أشده

وكان الأحرار في مرحلة سابقة قد استقطبوا جانبا من أعضاء النظام رؤساء ومرؤوسين فنزعوا أنيابهم وقصوا مخالبهم فأصبحوا ممن يؤمرون فيأتمرون أو يساقون إلى الأمر فلا يناقشون فيه ولا يجادلون.

وتوالت الأحداث تنبيء بأن الحرب واقعة لا محالة. وجلس كل فريق يتربص بالآخر إما ريب المنون وإما غدر الزمان. فعلى إحدى ضفاف الزمان جلس الأحرار وقد صاروا هم الحكام ووقفت من ورائهم الحكومة بسلطانها وهيلمانها. وعلى الضفة الأخرى جلس الإخوان من أهل الوسط ومعهم قلة من أهل النظام ممن نسيهم الأحرار فلا نزعوا لهم أنياب ولا قلموا لهم أظافر. وكانت القاعدة في مثل هذه الأحوال كما تحكي كتب التاريخ أن من سبق فقد فاز ومن تخلف فقد خاب. ولكن الذي حدث كان شيئا عكس ذلك تماما.

فبينما الإخوان يحاولون أن يقفوا موقف الند للند من الثوار عاجلهم الأخيرون بضربة مفاجأة كانت أقرب إلى التحذير منها إلى التكدير. فقد عن لمجلس قيادة الثورة يومها أن يري قادة الإخوان ومرشدهم معهم ما يسميه الناس بالعين الحمراء فجمعوهم بزعم أنهم يتصلون بسفارة أجنبية والله وحده أعلم إن كانوا قد اتصلوا

أو أوصلهم بالسفارة من لـه مصلحـة في ذلك . لقد جيئ بالقادة فسكنوا أياما في حجرات الضيافة داخل السجن الحربي . وما أن أدت العين الحمراء مهمتها وأدى المسئولون واجب الضيافة لضيوفهم حتى أفرج عن السادة الإخوان ليعودوا إلى بيوتهم وليزورهم عدد من قادة الثورة إعرابا عن رغبة ربما تكون صادقة في أن تعود المياه إلى مجاريها . ولكن المياه لم تعد وربما أجبرت على أن تعدل مسيرتها وأن تتحول إلى طوفان أحاط بالجماعة قادة وجنود فكان ما كان من الهروب الكبير والصدام الأكبر .

ففي شهر أكتوبر على ما أذكر كان الرئيس جمال عبد الناصر يخطب الجماهير التي احتشدت في ميدان المنشية بالإسكندرية من أجل الاحتفال بما تم من نصر بعد الوصول إلى معاهدة مع البريطانيين يغادرون بمقتضاها مصر بعد سنوات طوال من احتلال أرضها الطيبة الطاهرة !! وبينما الاحتفال في قمته والناس من فرط فرحتهم يهتفون ويستمعون ويتراقصون خرجت رصاصات قيل متعمدة وقيل مفتعلة وقيل طائشة مقصودة ولكنها كانت كفيلة بأن تصيب الناس بذهول يوم الحشر الكبير لولا أن أخطأت الرصاصات طريقها إلى صدر الزعيم فقد أراد الله أن يبقيه لما هو أهم مما

أنجزه من أمجاد وألا يبدل فرحة هؤلاء الناس هما وغما وحزنا على الرئيس. وقيل يومها كلام كثير فبعد أن زالت المفاجأة وهدأت النفوس والعقول معا قال متحدث رسمي أو أمني لا أذكر بالضبط أن يد الخيانة والإثم قد تجرأت فأرادت أن تغتال رئيس الدولة وقائد ثورتها وأن القاتل قد قبض عليه وأن سلطات التحقيق قد تولت الأمر حتى تكشف للناس من وماذا وراء هذا العدوان الأثيم. وبعد أيام قليلة قيل أنه عثر على السلاح الذي استخدم في الجريمة وأن من عثر عليه حضر به إلى القاهرة. وعلى عادة أهل مصر فقد قيل يومها يبدو أن الرجل جاء ماشيا أو أنه بحث عن شرطة في الإسكندرية فما وجد لها مكانا ولا أثرا!!

لقد كتب كثير من الناس مؤرخون ومستأرخون مؤيدون وغير مؤيدين وأدلوا بدلوهم في هذا الحادث. وعلى الرغم من أن الرئيس لم يصب بأدنى سوء إلا أن الحادث كان كفيلا بأن تعلن الحكومة الحرب على الإخوان المسلمين. ولقد نجا من هذه الحرب من نجا وسقط في ميدانها من سقط ولاذ بالفرار من مكنته ظروفه من الهرب. وتمت التحقيقات في هذه الجريمة وأعلن أن الجاني من جماعة الإخوان المسلمين وأن قادة الجماعة كانوا وراء هذه المحاولة. ولم يسكت الناس عن الكلام حول هذا

الإغتيال الأبتر الذي أراد الله له ألا يتم فقيل تمثيلية أحسن الإعداد لها كما أحسن إخراجها وأن الهدف منها كان هو النيل من الإخوان وإغلاق ملفهم فلا يفتح بعد ذلك أبدا بل قيل أن الجاني كان يعمل مع رجال الثورة ذاتها وهم الذين أختاروه ودربوه وعهدوا إليه بدور البطل في هذه التمثيلية الزائفة ووعدوه خيرا إن هو أفلح فيما عهد به إليه. وقيل بل هي محاولة للإغتيال قام بها الإخوان بعد أن أوقفتهم الثورة عند حدهم لا يتجاوزوه. ولو أني دعيت اليوم للشهادة أمام محكمة عادلة لفضلت أن أدلي بشهادتي بغير يمين ولا قسم فلو أصرت المحكمة على أن أقسم وأن أقول الحق ولا شيء غير الحق لأجبتها بأني لم أشهد الحادث ولا علمت من الذي دبره فشهادتي مبنية على الظن والظن بعضه وليس كله إثم فإن شاءت المحكمة قبلتها وإن شاءت ردتها !!

كان اليأس قد غطى نفوس من تبقى من قادة الإخوان المسلمين وكانوا قد فقدوا الثقة في أن يبلغوا مع الثورة مرادهم وكان من أنضم إليهم من غلاة النظام الخاص لا يعرفون إلا لغة العنف أو الإغتيال أو ما يدخل في هذه الفصيلة من أعمال. لذلك فأنا لا أستبعد أن يكون رأيهم قد غلب على رأي الآخرين بعد أن حال اليأس بينهم وبين أي تفكير هادئ أو معتدل. ومبلغ علمي مما

سمعته أن شيئا كان يدبر في مخبأ أحدهم وأن واحدا ممن حكم بإعدامهم وأعدم بالفعل كان يتردد عليهم. كذلك يزيد في شكي أن أوامر قد صدرت إلى الإخوان قبل ذلك ومن بينهم من أعرفهم بل ومنهم بعض أهلي وعشيرتي بأن يختبؤا لأن الصدام قادم والخطر داهم. وقد اختفى منهم من اختفى وهرب من هرب وبقي ينتظر أمر القضاء والقدر فيه أكثرهم إيمانا وربما أبعدهم عن القتل والإغتيال.

وهكذا وقع الهروب الكبير وأعقبه الصدام الأكبر وأنطلقت جحافل الشرطة من علنية وسرية وعامة تجمع الإخوان من كل صوب وحدب لا تفرق في ذلك بين كبير وصغير برئ أو مذنب فقد كانت الأوامر تقضي بأن يعتقل كل من له بالجماعة صلة عضوا كان أو متعاطفا عاملا كان أو خاملا حتى لقد تذكر الناس يومها خطبة الحجاج بن يوسف في أهل العراق"والله لآخذن البرئ بجرم المذنب حتى ليلقى الواحد منكم أخاه فيقول انج سعد قد هلك سعيد".

وبدأت المحاكمة فقد سيق إلى محكمة عسكرية خاصة نسبت إلى الشعب قادة الإخوان زمرا من مرشد وأعضاء مكتب إرشاد ومعهم طائفة من رجال النظام الخاص ممن فقدوا ولاءهم للأحرار أو لم تجد معهم المحاولة. وأعدم من أعدم ووزعت على الباقي

عقوبات الأشغال الشاقة المؤبدة والمؤقتة أما عقوبة السجن فكانت من نصيب العشرات بل المئات من أعضاء الجماعة ولم يسلم منها حاضر أو غائب. وأودعت البقية عنابر المعتقلات في أقصى الشمال وفي أقصى الجنوب. إلا أن هذه البقية التي لم يدرك الكثيرون خطرها قد ضمت من الشباب من خرج بعد ذلك ليرفع راية الإنتقام إثباتا لذاته لا إنتقاما لدعوته. ولقد أخطأت الحكومة التقدير عندما ظنت أن هذه البقية لا خطر منها. لقد ثبت بعد ذلك أن غالبية هؤلاء أصبحوا بعد أن خرجوا إرهابيون هواة وجدوا في الإرهاب إمارة حصلوا عليها دون جهد أو مشقة وأموالا تدفقت عليهم أو استحلوها هم بما أعتنقوه من مبادئ وأفكار لا يسندها دين ولا عقل ولا أفكار.

وفي داخل السجون والمعتقلات حدث ما لم يدر بخلد الحكومة ولا خطر على بال الثوار. فقد ظنت الحكومة أنها بما أقدمت عليه أمنت مكر هؤلاء وضمنت استكانة من تركوهم وراءهم من أبناء وزوجات. ولكن ظن الحكومة في هذه المرة لم يكن كما كان ظن الأحرار في كفاحهم من أجل القيام بثورتهم. ففي داخل السجون والمعتقلات أتيح للإخوان ومن أخذوا بذنبهم أن يتعايشوا وأن يلتقوا وأن يتحدثوا فيطول بهم اللقاء ويمتد بينهم الحديث وهو ما

لم يكن متاحا لهم منذ مقتل الإمام وحظر نشاط الجماعة وغلق مراكزها وفروعها. وضمت السجون والمعتقلات بين من ضمت المعلم والأستاذ الذي لو سعى إلى تدبير ما دبره له السجن ما نجح. لقد تجمعت من حوله القلوب والعقول وشربوا وطعموا من فكره ما أغناهم عن الشراب والطعام. وكانت لهذا المعلم آراء وأفكار سادت من سنوات طوال في الدولة التي شهدت عصور الخلفاء وكانت وقتها حاضرة الإسلام.

وعندما غادر الأستاذ المعلم تلاميذه لم يلبث أن وجد غيرهم في انتظاره ولكنه عاد مرة أخرى وكانت تلك العودة نذير شؤم على المعلم وعلى مجموعة من مريديه وأتباعه. ولم يمهلوه وحاكموه كما حاكموا غيره من قبل وقدم هو ومن أوفوا له بالعهد من تلاميذه إلى غرفة الإعدام ليشنقوا جزاء ما فكروا لا ما دبروا!!

وخرج كل من خرج وقد طرأ عليه ما غيره فإما أنه أفاد وإما أنه استفاد إلا المرشد الجديد فأغلب الظن أنه خرج من محبسه كما دخل صلبا صامتا كأن شيئا مما حدث لم يحدث. وقيل أنه ألف كتابا في السجن وقيل بل ألفه غيره ونسبه إليه على أي حال فقد صدر الكتاب باسمه وكذب الناس كل من ادعى أنه كتبه بقلمه ونسبه إلى مرشد الدعوة وإمامها الجديد.

ولقد صاحب الدخول إلى السجون والمعتقلات هروب كبير أشبه ما يكون بهروب قوم موسى من فرعون خوفا من ظلمه وبطشه مع فارق واحد وربما أكثر وهو ان من هربوا مع موسى عليه السلام قد هربوا بدينهم ولكنهم سرعان ما عبدوا العجل بدلا من الله أما من هربوا من الثورة فأغلب الظن أنهم هربوا أول الأمر بدينهم ولكن أغلبهم قد وجد في الغربة دنياه أو ساقته الأقدار إلى من وجد فيه خامة ربما خبيثة من أجل إرهاب الناس وترويعهم إما لغاية وإما حبا في الإرهاب ذاته على نحو ما سنرى.

وربما جمعت الظروف والأطماع بين من هربوا بعد الثورة خوفا من بطشها وبين من هربوا من مصر بعد أن ذاقوا وحشة السجن ومرارته وشكل الإثنان جبهة حاولت أن تثير القلاقل وأن تعكر صفو حكومة الثورة في الخارج ولكن الحق أن الحكومة كانت قد تعكر صفوها في الداخل أيضا نتيجة لمشاكل جاءتها من شعبها الذي هلل لها أحيانا ومن جيرانها الذين شبوا عن الطوق أحيانا أخرى وظنوا أن الرؤوس قد تساوت وذلك على نحو ما سنرى فيما تبقى من مشاهد.

"ستار"

المشهد السابع

وخرج الإخوان من غيابات السجون ...

وخرج الإخوان من غيابات السجون

في الثامن والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٩٧٠ امست مصر على خبر سرعان ما انتشر بين الناس ولم يزد الخبر عن كلمتين "مات عبد الناصر". وكان الموت مفاجأة للناس مع أنه نهاية كل حي وإن لم يكن كذلك بالنسبة لأطبائه والمقربين منه والذين ربما أفضى إليهم يوما بما كان يعانيه من آلام لا قدرة لبشر على تحملها فما زادوا عن أن ألحوا عليه بالراحة. كان الرجل يبدو قبل ساعات من موته شامخا كعادته وهو يودع ضيوفه من الملوك والرؤساء بعد أن دعتهم للإجتماع على غير موعد ولا عادة أحداث أيلول الأسود وما شب من نزاع أقرب إلى الحرب بين الملك حسين بن طلال والفلسطينيين في عمان بالمملكة الأردنية. وكانت الشاشة الصغيرة قد نقلت إلى الناس مراسم التوديع حتى آخرها وحين هم عبد الناصر بتوديع أمير الكويت فربما لاحظ القليلون اهتزاز وقفة الرئيس وتحامله على نفسه.

مات عبد الناصر وأمتلأت شوارع القاهرة بملايين المودعين حتى خيف على النعش من لوعة الناس وشدة حزنهم وقيل يومها أن جثمانه لم يكن يصاحب جنازته ولا كان داخل نعشه وإنما نقل بالطائرة إلى مدفنه وتركت المراسم والطقوس تأخذ طريقها إلى

حيث نهاية كل حي. ولم يقتصر حزن الناس على مصر وحدها بل امتد من الخليج إلى المحيط ونال القادة والرعية على السواء فقد استطاع عبد الناصر بما فعل وبما قال أن يدخل كل بيت وأن يطبع صورة أو يترك بصمة على كل بيت دخله أو أذن سمعته أو عين رأته. ويقول التاريخ أن الشعوب عادة ما تفتقد زعماءها إذا رحلوا عنها أساؤوا إليها أو أحسنوا خاصة إذا كانوا من النوع الذي ينتمي إليه عبد الناصر. ومن العجيب أن من بكوا عبد الناصر كانوا فصائل متنوعة القريبون منه والبعيدون من أحبوه ومن أصابهم منه مكروه فلا أستطاعوا أن يحبوه أو أن تصفو قلوبهم له ذلك لأن للموت رهبة تتنحى أمامها الشماتة والكراهية. ولذلك لما رحل الرجل بكاه الناس وأحسوا كأنهم فقدوا بموته شيئا يتعين البكاء عليه. ومن الغريب أن عددا لابأس به ممن كانت تضمهم السجون والمعتقلات في هذا الوقت قد بدا عليهم وكأنهم قد صدموا بوفاة من ألقى بهم نظامه أو ربما هو نفسه إلى داخل السجون وعنابر المعتقلات. ومن الغريب أيضا أن عددا من هؤلاء ربما بكاه بالفعل وأخفى دمعته خوفا من غضبة من كانوا معه وحالت البغضاء بينهم وبين أن يهز الموت مشاعرهم أو أن يذكروا أننا كلنا لله وأننا إليه راجعون. والحق أن السنوات الأخيرة من حكم عبد الناصر قد شهدت الكثير من قرارات العفو

الصحي وهو نوع من الإفراج لا علاقة له بالصحة ولا بالمرض عادة ما يلجأ إليه الحكام عندما يحسون أن من حكم عليه قد أمضى في السجن أكثر مما يستحق أو أنه لم يكن يستحق العقوبة أصلا ومع ذلك قضى بها عليه. وعلى ذلك فهو نوع من العفو السياسي أكثر منه نوع من الإفراج الصحي كما يسميه أهل القانون !! والحق كذلك أن عددا كبيرا من قادة الإخوان ورؤسائهم قد نالهم هذا الإفراج الصحي ثم لم يلبث أن غدا عفوا حقيقيا لا رجعة فيه ولا عدول عنه. ولطالما عجبت من أمر من كانوا أولى الناس بإفراج صحي بعد أن هدهم المرض بالفعل وأبوا أن يطلبوا الإفراج حتى لا يتهمهم الناس بأنهم خانوا جماعتهم أو فرطوا في مبادئهم مع أن من هم أعلى منهم درجة في الجماعة كانوا قد خانوا وفرطوا من قبل.

مات عبد الناصر وترك الحكم من بعده لأنور السادات وجاءت هذه الخلافة فيما يبدو- على غير ما اشتهى الأحباب والأعداء. ولولا ذكاء ودهاء تفرد به أنور السادات دون بقية من تبقى من الأحرار لما مر انتقال السلطة بهذا اليسر الظاهر وتلك السهولة المفتعلة. لقد جاء أنور السادات إلى الحكم ولم ينس الإخوان بعد ولا نسى هو أنه واحد من الأحرار الذين تسللوا إلى جماعتهم فملكوا أمرها ثم غدروا بها ولم ينسوا كذلك أنه واحد ممن حاكموا

قادة الإخوان وزجوا بهم إلى السجون أو علقوا في رقاب قادتهم حبال الموت والإعدام. . وأيقن من في السجون أن من دخل إلى السجن في عهد عبد الناصر لا يمكن أن يخرج في عهد السادات خاصة بعد أن شعر الناس من خطبه وكلامه أنه يرى نفسه إمتدادا لرفيق عمره وسلاحه الله يرحمه !! ولكن ما كان يدور في خلد السادات كان شيئا غير ذلك تماما.

جاء أنور السادات إلى الحكم بعد فترة طويلة اختلطت فيها المتناقضات بالأحداث. فقد شهدت فترة حكم عبد الناصر من الحروب اثنين ومن النكبات اثنين. أما الحرب الأولى فكانت اعتداء ثلاثيا صددناه بحرب شعبية أو ربما أوقفه صراع كان بين دولتين كبيرتين كانتا أعداء ثم قرب الله بينهما انتصرت إحداهما لنا من أجل مصالحها وليس من أجل سواد عيوننا وأما الحرب الثانية فكانت هجمة كاسحة من أعدائنا وإن كانوا أبناء عمومتنا الرابضين على حدودنا. ولقد كنا يومها شركاء فيما أصابنا من هزيمة أو نكسة كما أسمتها وسائل الإعلام في تلك الأيام. وأما النكبتان فالأولى نكبتنا في اليمن السعيد عام ١٩٦٢ عندما أردنا أن نعين ثورة قامت أو أقمناها بأيدينا هناك فتهنا في الجبال وأنغرست أقدامنا في الأوحال وإذا بنا أحوج منهم بأن نعان!! والثانية نكبتنا في أمل الأمة العربية عندما أردنا أن نقيم نموذجا للوحدة العربية

التي ننشدها فأبى أخواننا في الشام وانفصل الإقليم الشمالي عن الجنوبي كما تنفصل العربة عن الحصان وظللنا بعد ذلك بالعناد أعواما "جمهورية عربية متحدة. حتى جاء أنور السادات فأعادنا إلى الواقع الذي ليس بالمرير وجعلنا بعد ذلك جمهورية مصر العربية فأهلا وألف أهلا بالرجوع إلى اسمنا القديم الذي كرمه القرآن أكثر من مرة وتعودناه منذ قرون.

والحق أننا لسنا من المؤهلين للحديث عن ذلك كله فلا نحن من الجند الذين خاضوا الحروب ولا نحن دعاة وحدة أو إتحاد أو حتى فكر يدعو إلى شيء من ذلك رغم أننا قد أمضينا زهور عمرنا لا زهرة واحدة في جامعة عربية تعمل جاهدة من أجل الوصول إلى صيغة موحدة يقبلها من لا يجمعهم إلا الخلاف والمصير !! وعلى أي حال فإن الذي يعنينا فيما نحن بصدده من حكاية عن الإخوان المسلمين هو أن عبد الناصر قد ترك للسادات تركة مثقلة بنزلاء السجون ورواد المعتقلات من الإخوان بعد أن غادرها الشيوعيون منذ أعوام احتفالا بما أسبغه علينا السوفيت من فضل ونعماء ببنائهم السد العالي في أسوان. ولقد بالغ عبد الناصر في التعبير عن إمتنانه لمن كانوا يسمون أنفسهم يوما بالإتحاد ثم أنفرط عقدهم فأسرف في الاستعانة باليساريين وقلدهم من المناصب في الوزارة وأجهزة الإعلام ما فاق ما تمنوه بكثير حتى ولو قاموا

بثورة حمراء لا بيضاء كثورة الأحرار !! وألفى أنور السادات نفسه وسط شقين من الرحى مطلوب منه ألا يترك نفسه بينهما للطحن أو التدمير.

كان أول الشقين هو ما عرف يومها بمراكز القوى الخائرة والتي عاجلها السادات بضربة خطافية كانت قاضية فلم تزد المباراة عن جولة واحدة وأما الثانية والمتمثلة في أهل اليسار فقد أرجأهم الرئيس المحنك حتى يجهز لهم العدة ويعد لهم الضربة.

ويبدو أن السادات قد أدرك بماضي تجاربه أنه لا يفل الحديد إلا الحديد وأنه إذا لم يفله فلا أقل من أن يهزه أو أن ينال منه وبحكم ما كان له في السياسة من تجارب لا تحصى فقد رأى في الإخوان الذين هم الآن أو أغلبهم وراء قضبان الحديد ما يصلح لأن يكون سلاحا يمكن أن يضرب به أهل اليسار إن هو من عليهم بإفراج أو ربما بعفو شامل كامل به تزول من النفوس كل عداوة علقت بها وربما تحل محلها محبة ومودة أو عشق وهيام. وتحقق للسادات بعض ما تمناه لا كله فقد صدر عفو عن الإخوان المسجون منهم والهارب على السواء وجاء العفو شاملا كاملا بالفعل فما ترك حكما ولا محكمة إلا وشمله ولو استطاع أن يعيد من أعدم إلى الحياة لفعل ولكنه سبحانه وحده هو الذي يحيى ويميت. وخرج الإخوان أبرياء كيوم ولدتهم أمهم الدعوة تماما. وكان هذا هو ما

تم من أمنية السادات ولكن بقية الحكاية لم تتم فما أن ملك الإخوان حريتـهم ونزعوا القـيود من أيديهم حـتى شكروا للرئيس فـضله وكرمه ثم نسيهم ونسوه واتجه الإثنان كل إلى طريق.

ويبدو أن بقية الصراع مع مراكز القوى قد انتهى بعد أن إجتاز السادات ما نصبوه من فخاخ في طريقه. ولم يلبث الناس أن نسوا ما كان من حديث وقصص حول ثورة التصحيح أو ثورة مـايو كما يحلو للبعض أن يطلق عليها. لقد ذهبت ثورة التصحيح لحالها ولكن بقي مايو متمثلا فيما حمل هذا الاسم من صحف وكباري ومدن وطرقات !! ويبدو كذلك أن شئون الحكم قد أخذت من السادات معظم فكره إن لم يكن كله وربما لم يبق فيه مكان إو ذكر للإخوان الذين ظنوا أن السادات قد أفرج عنهم لا حبا في علي ولكن كرها في معاوية أو ليكونوا عزوة له إن إراد أحد من الناصريين أو اليساريين أن يعترض مسيرته أو أن ينقض على حكمه خاصة وأن اليساريين كما قدمت كانوا قد انتشروا في أجهزة الإعلام وكمنوا فيها كالألغام لا يأمن العابر خطر إنفجارها ولو عن غير عمد ولا تدبير.

خرج الإخوان وتفرقوا كل يبغي طريقه ولو لم تتحدد في ذهنه معالم هذا الطريق أو كيف يبدأ السير فيه. فأما من فهم منهم الدرس ووعاه فكانوا أقرب الخارجين هداية إلى طريقهم فقد

أدركوا بفطرتهم الطيبة أن الحي أولى من الميت وأن ما كان من صراع لم يعد هناك ما يبرره ولا ما يدعو إليه. فمن كانت له مهنة منهم عاد إليها ومن كانت له تجارة وضع همه فيها ومن كان موظفا أو عاملا وناله وقف أو فصل أو تجاوز سن العمل فهؤلاء اتجهوا إلى القضاء الشامخ كما اعتدنا أن نصفه إذا أنصفنا. ولقد أنصفت المحاكم أغلب هؤلاء إن لم يكن كلهم فمن فقد عمله وهو ملازم صار لواء صحيح أنه لم يعد إلى الخدمة ولكنه بلغ بالرتبة غاية ما أراد وأصبح بحكم تاريخه العسكري واحدا من الباشوات رغم إلغاء الألقاب. ومن كان مربوطا على أدنى الدرجات غدا مديرا عاما أو وكيل وزارة وربما أمضى في الوكالة عاما أو بعض عام إلا أن ذلك كان عوضا له عن كل ما عاناه في سجنه أو اعتقاله. أما من كان لا هذا ولا ذاك فقد كان له شأن لا يمت لشأن السابقين بصلة.

مضى من ليس من هؤلاء ولا هؤلاء يتحسس طريقه وتعبت قدماه وهو يحاول أن يجد الطريق أو يقف على بدايته. وتكفل اليأس بإيقاظ كل ما أحاط بداخله من عقد تبعتها كراهية للناس والجماعة والحكومة على السواء. ولما لم تكن لدى هؤلاء موهبة ولا منزلة ولاحتى صلة بالله وصبرا على ما أصابهم فقد رأوا فيما أملاه عليهم المعلم الأستاذ ما بهر الجهلاء واستفاد منه الأذكياء

.. وكان هؤلاء هم أهل التكفير والهجرة يهجرون المجتمع لأنه كافر ويستحلون مال الناس وأعراضهم وربما أرواحهم ثم ينقضون على المجتمع بعد ذلك وقد أضحى جثة هامدة فيتولون أمره ويديرون حركته. وآخرون جعلوا من أنفسهم أصحاب جهاد في الإسلام وصدقوا أنهم رهبان ليل وفرسان نهار مع أن الجهاد والإسلام منهم براء إلى يوم الدين وربما من بعده كذلك. وإلى جانب هؤلاء وهؤلاء قامت جماعات لا أكاد أذكر أسماءها من كثرة أعدادها منهم الناجون من النار وما أظنهم كذلك ومنهم العائدون من أفغانستان الأولى وليتهم ما راحوا ولا عادوا.

ويبدو لي أحيانا أن هذه الجماعات قد بدأت يائسة ثم لم تلبث أن وجدت نفسها فيما أقدمت عليه فلم تعمد إلى البقاء في الكهوف والمغارات في وسط الجبال وإنما اتخذت من بيوت الناس سكنا ومن إتاوات فرضتها عليهم متاعا ومالا وروعت الناس وكادت أن تفرض عليهم سلطانها وضلالها. ووجدت بين مرضى القلوب ومعدومي القدرة على فعل الخير من يصلح للانضواء تحت لوائهم حتى أصبحوا في النهاية جموعا من الضالين المضللين أمراء وجنود لا وسط بينهم ولا رابطة تجمعهم إلا أن يمارسوا حرفتهم الجديدة وأن يؤكدوا في كل يوم شعارهم "الإرهاب من أجل الإرهاب".

ومن الإنصاف ومن باب إعطاء كل ذي حق حقه أن أقول أنه رغم مشاغل السادات وما دخل فيه من معارك الحرب والسلام فإن جهاز الأمن لم يغفل عن هؤلاء وإنما وضعهم نصب عينيه ورصد اجتماعاتهم وتحركاتهم ولكن ربما حال دون تحرك الأمن أنه لم يلمس من القيادات إلا صدا أو نوعا من عدم المبالاة أو عدم إدراك ما قد ينطوي عليه هؤلاء من خطر يوشك أن يهدد أمن الناس. ثم لما قامت جماعة منهم بخطف المرحوم الشيخ عبد الوهاب الذهبي فإن التحرك من أجله لم يكن بقدر ما كان للرجل من مقام وهيبة. لقد قتلته جماعة التكفير والهجرة على ما أذكر وقيل يومها أنه كان مستشارا ومفتيا لها بل وفقيها من فقهائها. وأنه لما تولى الوزارة انقلب عليها وانضم إلى أعدائها. وأجد نفسي رافضا لكل ما قيل فقد كان الرجل صالحا فيما نسمع ونعلم ربما عرفهم بحكم أستاذيته فلما أنكشف له أمرهم وضلالهم نجا بإيمانه منهم فراح ضحية أدعياء التدين وهواة الإرهاب. ومضى الحادث دون أن يفطن السادات إلى أن الخطر يستهدفه ولا يرضى بغيره. ولما وقعت أحداث سبتمبر عام ١٩٨١ فإن الجمع الذي ساقته قوات الأمن إلى المعتقلات قد ضم من كل بستان زهرة ولكنها تركت أغلب أشواك الجماعات الإسلامية من ذرية الإرهابيين من جماعة الإخوان مطلقة السراح رغم إصرار جهاز الأمن وإلحاحه على

القيادة بأن هذه الجماعات قد أخذت مواقعها وأنها تدبر للسادات نفسه أمرا ربما لم يخطر يومها على بال أحد.

ووقع حادث اغتيال السادات وهو وسط أبنائه من ضباط وجنود القوات المسلحة كما كان يقول وهكذا يؤتى الحذر من مأمنه كما يقول الحكماء. ويومها تأكد المحققون من أن من فكر وخطط ودبر ونفذ هم بالقطع من جماعة انحدرت بأصولها وسلوكياتها وأفكارها من جماعة الإخوان المسلمين بصرف النظر عما أطلقته على نفسها من اسم أو شعار. ويوم أعدم خالد الإسلامبولي قاتل السادات صدرت الأوامر إلى جند الله !! من أتباع الجماعة الإسلامية الباغية أن على كل ذات حمل إن وضعت حملها خلال عام أن تطلق عليه اسم خالد إن كان ذكرا وخالدة إن كانت انثى. وقد كان وأمتلأت أرض مصر المحروسة المكتظة أصلا بسكانها بمئات جدد من الخالدين والخالدات ولكن في أي جانب أو أرض سيكون خلودهم!! الله أعلم فهو وحده العليم فوق ذي علم أو معرفة.

وتولى الرئيس محمد حسنى مبارك أمور الحكم في مصر بعد سنين قضاها نائبا لرئيسها أحاط فيها بما يتهدد البلاد من مخاطر وما يجري الإعداد له من متاعب ومؤامرات. واكتملت لديه الصورة بما أطلع عليه من تقارير لم تكن من قبل موضعا لما هي

جديرة به من اهتمام وشاهد بنفسه كيف تم اغتيال أنور السادات وعرف أن الأمر ليس أمرا عارضا ولا عابرا وإنما هو تدبير سوء احسن الإعداد له وأن الأمر لن ينتهي بإعدام واحد أو أكثر ممن استخدموا في هذا الحادث.

وكانت قرى مصر ونجوعها وما أزدحم من أحيائها قد امتلأت بفلول هذه الجماعات التي عاشت بعد ذلك وليس لها من هم إلا أن تهلك الحرث والنسل. وظهر الفساد في البر والبحر واجتاحت البلاد موجات متلاحقة من هواة الإرهاب ممن كان آباؤهم وأجدادهم وأساتذتهم يوما دعاة تربية وإصلاح ومازال الناس يذكرون على غير ترتيب ولا حصر محاولة الاعتداء على الرئيس مبارك ومحاولة اغتيال وزير الداخلية الأسبق المرحوم زكي بدر ووزير الداخلية الأسبق كذلك اللواء حسن أبو باشا وهو واحد من أقدر من عرفتهم من رجال الأمن في مصر ومحاولة اغتيال صفوت الشريف وزير الإعلام ورئيس الوزراء الأسبق عاطف صدقي ومكرم محمد أحمد نقيب الصحفيين السابق. ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد بل حاولوا ضرب السياحة في مصر فكانت حوادث الإرهاب التي وقعت في شارع الهرم وميدان التحرير ومعبد فيلة في الصعيد والبر الغربي بمدينة الأقصر والذي بلغ به الإرهاب المحلي قمة بشاعته ففيه ذبح السياح وبقرت بطونهم

ومثل بجثثهم. وكست أرض مصر الطيبة سحابة حمراء سوداء ليست كتلك التي تغطي سماءنا اليوم أطلقها من لا يرعى حرمة دين ولا وطن ولا مبدأ. لقد مارسوا الإرهاب في البداية هواية فلما استهوتهم اللعبة اتخذوها لهم مهنة وحرفة. وأصبح للإرهاب محترفوه وتفرع إلى قتل وتفجير وترويع وهكذا تحول القتل والتخريب من هواية ليصبح احترافا تنظمه قوانين عرفية وتدعمه دول وأفراد وتنهال عليه الأموال من كل جانب على نحو ما سنرى فيما تبقى من مشاهد.

"ستار"

المشهد الثامن

هواة الإرهاب يحترفون ..

هواة الإرهاب يحترفون

وينتشر الإرهاب في كل مكان وتعاني منه مصر ما تعاني فتضرب السياحة ويتعرض السائحون إلى البلد الآمن للقتل والإصابة والترويع ويضرب من ورائها اقتصاد مصر ويتعرض الآلاف لفقد مورد رزقهم ورزق عيالهم. ويتعدى الإرهابيون المحترفون حدود مصر إلى خارجها فتقتحم السفارة المصرية في باكستان ويحاول القتلة الإرهابيون أن يعترضوا موكب الرئيس المصري في أثيوبيا وهو ذاهب إلى قمة ربما تدعو للسلام وخيب الله قصدهم ووجد الجناة من يأويهم.

ويرى حسنى مبارك دولا غربية وغير غربية عرفت بالعراقة في ديمقراطيتها واحترامها للقوانين والمواثيق قد فتحت أبوابها للإرهابيين تأويهم فيجعلون من أرضها قاعدة ينطلقون منها ليضربوا ضربتهم ثم يعودون إليها معززين مكرمين. ويحذرهم الرئيس بأن غدا ينقلبون عليكم فليس للغدر أمان ولا شرف. ولكن الدول الآوية مازالت هادئة مطمئنة لأن الخطر لا يصيبها وإن كان يخرج من أرضها. ويحذر الرئيس مرة ومرات والرد دائما واحد ظاهره وعد بمحاربة الإرهاب والمشاركة في مواجهته وباطنه ما لنا وللإرهاب والإرهابيين فانتم الذين أنجبتموه وأنتم

الذين صدرتموه وأنتم الذين تكتوون بناره فالمشكلة مشكلتكم في البداية والنهاية. ويعود الرئيس حسنى مبارك في كل مناسبة لينادي إن من آوى إليه الإرهاب سيكون أول من يكتوي بناره ومن أمسك بالنار لابد وأن تحرقه. ويذهب النداء والتحذير أدراج الرياح لأن أحدا من الدول لا يسمع أو لا يريد أن يسمع. ذلك أن من الدول من لا تحكمه عقول حكامها بل تحكمها وربما تديرها عقول من يسيطر على مقدراتها ومن تسلل إلى اقتصادها وملك في يديه حياتها ومع ذلك فهي دول عظمى أو نحو ذلك !!

ويمضي الإرهاب في غيه بعد أن اطمأن لمن يأويه ومن يغدق عليه من الأموال ما يكفيه. ومضت الدول تتسابق من أجل أن تخطب ود الإرهاب وأن تتحالف مع أفراده بعد أن رأت في ذلك تحقيقا لصالحها وإن كان في ذلك إساءة إلى سمعتها لأن المصالح في دنيا السياسة فوق كل إعتبار ولها الولاء الأعظم في جميع الأحوال.

ويقترب هذا المشهد من نهايته وأسمع من يدعوني إلى المسرح لأدلي بشهادتي بعدما رآه الناس من مشاهد فاستجيب وأنا لا أتبين من دعاني وأحلف بالله العظيم أن أقول الحق كل الحق ولا شيء غير الحق:

الإخوان المسلمون الأوائل الذين أسميتهم بالحرس القديم

الذين شاركوا الشيخ الواعظ في بداية دعوته هؤلاء مبرءون مما نسب إليهم وهم دعاة إصلاح ديني واجتماعي تشهد على ذلك أعمالهم وآثارهم وبعدهم الكامل عن كل ما له علاقة بالإرهاب ولو بقي الأمر في أيديهم لما حدث ما حدث ولما أنجبت دعوتهم ذرية تريد حكما بعنف أو بغير عنف. وهؤلاء قد أندثروا ولم يبق منهم إلا من ندر.

الإخوان المسلمون الجدد والذين أسميتهم بالغزاة الفاتحين ومن نهج منهجهم. هؤلاء طلاب حكم يفضلونه بغير عنف إلا أن يضطروا إليه. وظني أنهم لم يكن لهم بالعنف أو الإرهاب خبرة أو دراية ولذلك خابت مخططاتهم وباءت بالخيبة محاولاتهم.

الإخوان المسلمون من أعضاء النظام السري أو الخاص كما يحلو للمشاهد أن يسميهم ومن ساروا على هديهم. هؤلاء إرهابيون برد الفعل أو الأمر ثم إرهابيون هواة. وأغلب الظن أنهم فشلوا في تحقيق ذاتهم بعمل طيب يصلح به حالهم وحال الناس معهم فتواروا وراء عجزهم عن ذلك بتكفير المجتمع ومن فيه وحكموا على الناس بالكفر دون بينة أو دليل وجعلوا من أنفسهم أمراء ومن أتباعهم رهبانا بالليل وفرسانا بالنهار وفهموا آيات الله أغلب الظن عمدا لا غباء- على أنها نزلت من أجلهم فجعلوا عدة الجهاد سبيلا لهم لترويع الناس وقتل الأبرياء وجعلوا

أعداء الله هم سائر البشر إلا هم. فحقت عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

أحفاد الجماعة إن صحت التسمية وهم ليسوا بالضرورة أبناء القدامى من الإخوان ولا هم أبناء أبنائهم ولكنهم النبت الذي خرج على غير إنتظار ولا توقع من غيابات السجون والمعتقلات ضائعين يائسين ولم يجدوا من يأخذ بأيديهم أو يغفر لهم خطيئتهم ومعهم الهاربون من بلادهم خشية قبض أو محاكمة لمجرد أنهم كانوا يوما على صلة بالجماعة. وهؤلاء كشفوا عن غضبهم بكراهية لبلدهم وربما لأهلهم كذلك وراحوا يشاركون في كل حفل تراق فيه الدماء فمن أفغانستان الأولى إلى الثانية إلى الشيشان ومن الشيشان إلى البلقان. ثم رأوا أن الجهاد ضد من لا سلاح في يده أكبر غنما وأيسر سبيلا وأقل خطرا فصاروا إرهابيون محترفون. وهؤلاء هم أخطر الناس على أنفسهم وعلى أتباعهم وعلى بلادهم لأنهم أعداء للبشرية كلها وما كان لله ليخلق الناس إلا ليعبدوه لا لينشروا في الأرض الفساد ويهلكوا الحرث والنسل لغير غاية ولا هدف إلا المتعة الرخيصة والكسب الحرام.

والحق أنني لست مع الذين يظلمون الجهل والفقر ويجعلان منهما مولدات للإرهاب فالإرهابيون باسم الله ما شاء الله خريجو جامعات مهندسون وأطباء وعلماء ومنهم من حصل من الدرجات

العلمية على أعلاها. وكلهم ولا حسد من الأثرياء من قبل احتراف الإرهاب وخاصة من بعده فالإرهاب تجارة رابحة بلا شرف ولا أمانة.

وحسبي في هؤلاء ما قاله فيهم إمامهم ومرشدهم من بعد أن شقوا عليه عصا الطاعة:"ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين".

وعندما هم الناس بالوقوف نودي فيهم فجأة أن الحكاية قد زادت مشهدا جديدا وأخيرا!!

"ستار"

المشهد الأخير

زلزال يوم الثلاثاء وتوابعه ...

زلزال يوم الثلاثاء وتوابعه

"بينما الناس الحضور يتأهبون لمغادرة المكان والأنوار كلها مضاءة كأنما تودع ضيوف الحفل إذ بانفجار هائل يهز أركان المكان وأزيز طائرات لا يدري أحد كيف دخلت إلى قاعة المسرح وداست الناس ودفنتهم تحت عجلاتها واطفأت الأنوار أو انطفأت وغدا المكان موحشا مهجورا لا يسمع فيه إلا صراخ الناس وأنين جرحى يريد الموت ان يقبض أرواحهم".

كان هذا هو المشهد الذي قام بأدائه إرهابيون محترفون في يوم الثلاثاء الأسود الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ والذي هز أكبر وأغنى وأقوى دولة في العالم. ويومها أقسم رئيس أمريكا وأركان حربه لينتقم لهيبة دولته وكرامتها التي تعرضت للمهانة من إرهابيين لم يراعوا عرفا ولا دينا. وكأنما شاء الله أن يذوق من سكت على الإرهاب أو آواه مرارة وقعه وعاقبة تصرفه.

وجيشت أمريكا جيوشها وجيوش أحبابها ودفعت بالأساطيل تحمل المئات من الطائرات وصواريخ الموت والدمار كأنما هي مقبلة على حرب مع العالم كله. ولكنها أعلنت أن مجموعة من الحفاة والجياع هم هدف المعركة أو وقودها وأن طاغية الإرهاب بن لادن قابع هناك يحتمي بالجبال ويختفي في الكهوف وأنه قد

اتخذ من هؤلاء الضعفاء درعا بشريا يحمي به نفسه وعصابته وأن هذا الطاغية وجنده وأتباعه كلهم عرب ومسلمون !!

ويتردد العالم بين مؤيد متحمس وآخر متردد أو صامت وبين مستنكر غاضب وكأنه مثل الدفاع يطلب الدليل على الإدانة في قاعة محكمة من محاكم الجنايات. وينقسم العالم على نفسه. وأطرق فيصل إلى سمعي صوت العقل ممثلا في رئيس مصر وقد أخذ مكانه على المسرح إنه يستنكر الإرهاب ويذكر الناس بما قاله من قبل مرة بل ألف مرة ويدعو إلى مؤتمر دولي لمقاومة الإرهاب. وأشفق على الرئيس فأنا أعرف المؤتمرات وقد عشت في سيركها ووهمها سنوات عمري كلها وما خرجت منها بخير أبدا ولا أسفرت إلا عن مزيد من الورق تسوده بحوث وآراء يضيع ما فيها من علم في زحمة ما يضاف إليه من جهل أو غل أو كراهية قديمة لا تريد أن تزول ابتدعها الغرب للشرق وتبناها الشمال للجنوب.

ولا يزال الرئيس مبارك يردد دعوته حتى تبدو أمور تبشر بقرب الاستماع إليه. ووسط دوي القذائف وأزيز الطائرات يمضي الرئيس في دعوته لا يمل ولا يتعب إنه يخشى أن يساء فهم مدلول كلمة الإرهاب وأن يختلط الأمر على الناس فيحسبون مقاومة المحتل إرهابا أو يظنون أن الدفاع عن النفس والأهل

والأرض والعرض إرهابا. ويتجاوب مع الدعوة كثيرون ويبدأ الكلام من سكت من المؤيدين ويقع في المحظور بعضهم فينطق كفرا بعد أن سكت دهرا ويهاجم العرب والمسلمين وينفجر هؤلاء في وجهه غضبا وغيرة على دينهم وعروبتهم ويعتذر وليته ما فعل فقد كان اعتذاره أسوأ من ذنبه. ويهدأ الغاضب ويغضب الهادئ. ويدخل إلى المسرح كل من هب ودب من له نفع ومن ليس من ورائه إلا المشاكل وتختلط الأمور على من نظموا الحفل!!

ويتجاوب مع دعوة الرئيس مبارك كثيرون ومع ذلك لا تهدأ للرجل حركة وأحس كأنما قد نفذ الكلام إلى آذان الدولة العظمى وإن لم يصل بعد إلى عقلها.. وأجد نفسي وكأني أحلم بما أشتهي: فالنور قد عاد إلى مسرح الدنيا والرؤساء من كل أنحاء العالم يتوافدون وتقل الضجة حول المكان وينصرف كل ذي شأن إلى شأنه ويبدأ المؤتمر. ولأول مرة تظهر ابتسامة هادئة على وجه الرئيس المصري والرؤساء كلهم يدعونه لكي يكمل رسالته وليترأس المؤتمر الذى طال انتظاره.

وتخفت صيحة الانتقام ويتوقف اتهام الغرب للشرق ويتوقف قصف الطائرات للأرض الذبيحة. ويصمت كل شيء بعد أن صمتت المدافع والصواريخ. ولم أعد اسمع إلا أنين الإرهابيين المحترفين. وقد أحسوا أن الناس قد جمعوا لهم وأن نهايتهم قد

اقتربت فغدا لن يجدوا أرضا ينصبون فيها خيامهم ولن يجدوا نظاما يلجئون إليه أو يحتمون بظله. لقد أزفت الساعة ولكل طاغية أجل.

لقد شهدت دول العالم من الإرهاب وأعوانه مشاهد دونها بكثير مشاهد اليوم الأكبر في الولايات المتحدة. فلعل الناس والدول من ورائها أن تعلم أن السلام لا يأتي بالعبث وأن احتراف الإرهاب سبة في جبين البشرية كلها. لقد تخلصنا من إرهاب الهواة وعبثهم وكلفنا ذلك الكثير. فلعل الأوان قد آن ليذهب محترفو الإرهاب أمراء وجنود إلى الجحيم فلا يرون من بعده صحوة ولا خيرا أبدا

آمين يا رب العالمين

"ستار"

(تمت الحكاية بحمد الله)

في هذه الصفحات

رقم الإيداع
٢٠٠٩/١٨٥٠٠

وكالة الأهرام للإعلان

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر



مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

وكالة الأهرام للإعلان